الدور الثالث

صلاح الدين في فلسطين

تمكن السلطان صلاح الدين في الدور الماضى من إخماد الثورات التى كانت قائمة فى شمال سوريا وجهات الجزيرة ، فتغلب على منافسيه فيها وأخضعهم لشوكته وسلطانه ، واتخذ منهم أخداناً وأعواناً ، فتبدل حالهم من عداوة إلى صداقة ، ومن منابذة إلى معاونة ، فاستطاع بذلك أن يقوم بما نصب نفسه له من يوم أن تولى الأعمال في مصر ، وهو محاربة الأفرنج وأعلان الجهاد وإعداد العدة ليضربهم الضربة القاضية ، وهم أولئك الذين ما كانوا ليرعوا عهده ، ولا ليحفظوا ميثاقه ، ولولا هذا المدد الجديد ألذى احتال عليه طوراً بشجاعته وجنده ، وطوراً بحلمه وسياسته ، وآخر بكرمه وسخائه ، لما استطاع أن يقاوم تيار الأفرنج الذى كان يأتى إلى الشام من أوروبا من آن إلى آن ، ولما تمكن من القضاء على الحملة الثالثة الصليبية

على أننا لا ننسى ما لظروف الأحوال وقتئذ من الأثر ، فأنه بينما كان السلطان يؤسس عظمته فى الشمال ، كانت جهات فلسطين تموج بالفتن الداخلية والأختلافات الحزبية ، لا سيما بعد أن توفى ملكهم بولدوين الرابع وأقيم مكانه بولدوين الخامس ابن الملكة سيبل أخت الملك المتوفي . كان بولدوين الخامس هذا طفلا ، فكفله ريموند صاحب طرابلس الذى عقد

صلحاً لمدة أربع سنوات مع السلطان . بيد أن الملك الطفل ما كاد يطمئن به سرير ملكه حتى وافته منيته فى صيف سنة ٥٨٢ (١١٨٦) فكان من حق ريامونـد البقاء فى مركز الملك يدير دفة الأمور حتى ينتهى القوم من اختيار ملك لهم ، على أن سيبيل كانت قد تزوجت من جوى الذي انحازت إليه طائفة ليست من أنصار ريامونـد ، وما لبثت سيبيل أن ألبست زوجها تاج ملك فلسطين ، فتوجه ريامونـد من ذلك الحين إلى طبرية ، وكانت قد آلت إلى زوجه ، وفضّل المكث فيها على العمل مع جوى

عزم جوى على مهاجمة ريامونـد فى طبرية بحجة أن يحاسبه على الأموال التي جباها أيام وكالته عن الملك المتوفى ، فانحاز ريامونـد من أجل هذا إلى السلطان صلاح الدين ، وكان إذ ذاك فى بنياس يراقب حركات الأفرنج دون أن يتقدم لحربهم وهم على هـذا الحال من الانقسام الشديد ، ذلك لأن المعاهدة بينه وبينهم لم يكن أمدها قد انتهى بعد ، غير أنه انتهز فرصة انحياز ريامونـد له واستنجاده به ، فأخذ يجهز العساكر ويستعد للطوارئ

وبينما كان السلطان ينتظر انقضاء الهدنة ، كانت حاشية جوى تميل إلى فسخها متذرعين بأنها إنما وقعت على يد ريامونـد الذى أصبح الآن عدواً للملك والمملكة ، فأخذت هـذه الهدنة شكلا جديداً دخلت فيه التحيزات إلى حد كبير ، ونمي الشعور عند أتباع جوى بأن حرب المسلمين أمر واجب ، لا سيما بعد أن انحاز إليهم ريامونـد الخائن . ومن هنا نستنتج أن الأفرنج لا يستطيعون صبراً ولا يطيقون انتظاراً دون أن يظهروا العداء للسلطان ، ولقد كان رينولد أمير الكرك أول من يقوم بفسخ العهد

حسب عادته في ذلك ، وإليك بيان الحال

كانت الكرك هذه تقوم على الطريق الموصلة من الشام إلى مصر ومكة ، وكثيراً ما كان يعترض صاحبها القوافل الأسلامية السائرة في هذه الطريق وهو أمر جعل السلطان يغزوها المرة بعد الأخرى كما جعل نور الدين أيضاً قبل وفاته يعمل على الفتك بها

مرت فى خلال سنة ٥٨٢ (سنة ١١٨٦) قافلة غنية من قوافل المسلمين بالقرب من الكرك ، فلم يستطع صاحب الكرك ، مع ما هو مقيد به من العهود وشروط الهدنة ، الصبر دون أن ينقض عليها ويفتك بها ، ووجد فى عمله هذا اطفاء لنار غضبه وإرواء لظمئه من دماء المسلمين ، وفرصة لتلبية قلبه المملوء حقداً وبغضاً ، فانقض عليها واستولى على بضاعتها ومتاعها ، وسجن رجالها ونساءها ، ويقال إن أخت السلطان كانت من بين أهل هذه القافلة . ولما وقعوا في قبضته استهان بالدين وبالنبي ، وقال لهم « إن كنتم تعتقدون فى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فادعوه الآن يفك أسركم ويخلصكم من شر ما وقعتم فيه » فنمي هذا إلى السلطان ، فغضب غضباً شديداً وحلف ليأسرنه ليقتله بيده ، وحقاً بر السلطان فى قسمه كما سنرى ، وما درى صاحب الكرك أنه بما صنع قد جر الدمار على ملك اللاتين كله ، وأنه بما قد اقترفت يداه قد جلب الأحزان على قومه وأهله ونفسه ، فأن السلطان لم يجعل الكرك هذه المرة همه الوحيد ، بل أخذ العدة ليوقع النكال الشديد بالأفرنج قاطبة ، فيخرب من بلادهم ما استطاع ، ويستولى على قلاعهم ما وجد لذلك من سبيل ، مصمما على أنه إما أن يطهر البلاد من

رجسهم، وإما أن يعود محمولا إلى قبره

كان هذا الوقت أوان أوبة حجاج المسلمين ، فتأهب صاحب الكرك إلى اقتناصهم وهم قافلون ، واستعد السلطان لحمايتهم بعد أن أعلن الجهاد فى كل بلاده ، وعسكر فى قصر السلامة بالقرب من بصرى ، وظل فيها حتى مر الحجاج بسلام آمنين مطمئنين ، داعين للسلطان بالنصر والغلبة على قوم لا هم لهم إلا نكث الأيمان وفسخ العهود والمواثيق ، أعماهم التعصب وأغلظ قلوبهم الجهل فأوقعهم في شر ما كانوا يصنعون

وصله في هذا الأوان جيش مصر وغيرها فأخذ ينظم أحوالهم ، ثم مال بهم إلى تل عشترة ليعد العدة للموقعة الكبرى ، بعد أن سمع ما ناله ولده الأفضل من النصر على الأفرنج فى جهات عكا ، وما قد أسره من القوم وعاد بهم جميعاً مخترقين طبرية دون أن يتعرض لهم صاحبها لما كان بينه وبين السلطان من الوفاق

غير أن هذا النصر العظيم الذى حازه المسلمون قد أدى الى تجمع كلمة الأفرنج ، فأرسلوا رؤساء دينهم ونجباء قومهم إلى ريامونـد مهددين وناقمين عليه سكوته ، والمسلمون ينتكون بأخوانه ويمرون بالأسرى منهم في بلاده ، ورموه بالأسلام ؛ وما زالوا به حتى اضطر أخيراً إلى الانضمام اليهم والانتظام فى سلك صفوفهم ، فقويت بذلك شوكتهم ، واجتمعت كلمتهم ، فكونوا جيشاً جراراً هال المسلمين أمره

عقد السلطان مجلس شوراه ، فقرر وجوب منازلة العدو مهما بلغت قوته ؛ شجعهم على هذا ما رأوه من الجيوش التي وصلت من كل جهات

المملكة الأسلامية الصلاحية ، فاستعرض السلطان الجيش يوم الخميس ١٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ (٢٥ يونيه ١١٨٧) ثم تريث حتى صلى الجمعة وابتهل المسلمون إلى الله وتضرعوا ، وعبر يوم السبت نهر الأردن جنوبى بحيرة طبرية ، وإنما اختار هذه الجهة لما كان بينه وبين صاحبها من الرابطة كما سبق ، وأقام جنده الليلة الأولى هذه عند الأقحوانة ، وأرسل عيونه لمعرفة موقع العدو الذى تجمع فى صفوريا ليرد غارة المسلمين ؛ ثم تقدم السلطان وسار برجاله إلى تل كفر سبت على بعد بضعة أميال من جنوب غربى طبرية ليستولى على الطريق ، وحاول في هذه المدة الأشتباك مع الأفرنج فلم يتحركوا ، فترك نخبة جيشه تراقب حركاتهم ، وسار هو مع بقية الجيش إلى طبرية نفسها فى يوم ٢٤ ربيع الآخر (٢ يوليه) وبعد معركة قصيرة استولى السلطان على طبرية ، وامتنعت قلعتها ، ولجأت إليها زوج ريامونده هى وأولادها وحاشيتها ، ومن القلعة أرسلت تستنجد بالملك جوى فى صفوريا ، ولولا هذا الأستنجاد لما تحرك الأفرنج ، واظلوا ثابتين في مراكزهم

جمع الملك جوى مجلس أمرائه بعد أن وصلته استغاثة زوج ريامونده ، واستشارهم فيما يصنع ، فأشار ريامونده بعدم الهجوم على المسلمين ، أما أمير الكرك هو وجماعة آخرون فخالفوه فيما رأى ، وهو صاحب طبرية وزوجه هي التى تستغيث . رأى ريامونده ألا ضير على المملكة من ضياع طبرية ، وأن المسلمين سيرحلون عنها إذا لم يتقدم الأفرنج إليهم

على أن رأى ريامونده هذا قد جعله القوم موضعاً للريبة والشكوك حتى نسبوا صاحبهم إلى الخيانة لسابق عهده مع السلطان وصداقته له

وانضمامه إلى صفوفه ، والاعتزاز به على قومه

ظل الفريقان يتجادلان حتى منتصف الليل ، ففريق منهم وهو حزب ريموند يخاف عدد المسلمين الهائل ، وأمير الكرك يقول له « لا خوف ولا ضير من كثرة عدده ، فالحطب الكثير تأكله النار » وما زال بالملك حتى استمالة إليه ، وبات جوي وهو على نية الهجوم ، وما أصبح النهار حتى أصدر أمره للجيش بالحركة

علم صلاح الدين بحركة الأفرنج فرحل مسرعاً إلى جيشه الأصلي الذى تركه يرقب حوادث العدو ، وأخذ العدة للموقعة القادمة

ولم تكد تظهر شمس يوم ١٥ ربيع الآخر (٣ يوليه) حتى بدأ الجيشان بالحركة ، ولقد كانت عناية الأفرنج متوجهة إلى قطع خط الرجعة على الساطان وجيشه حتى يحولوا بينه وبين مركز قوته ومنابع المياه لعلمهم أن ميدان القتال يقع فى أرض قفرة لا يقوم ما تخرجه بمطالب جيش المسلمين كله على أن القوم قد ضلوا في اتباع هذه السياسة ، فلم يعرفوا أن السلطان صلاح الدين في حروبه كان يحتاط للأمر قبل وقوعه أشد احتياط ، فما كان ليغفل مواضع الخطر الذى يجوز أن يحدق بجيشه ، كما أنه ما كان ليهمل موارد المياه فى بلاد كالبلاد الشامية المحدودة ينابيعها

ولقد نسي الأفرنج أن عليهم واجباً واحداً فى هذا الظرف هو المدافعة وحدها دون سواها ، وأن ليس من حقهم أن يقوموا بهجوم على عدوهم القوي إلا اذا أيقنوا أنهم فى مركز منيع ، بحيث يرتدون إليه عند الحاجة

في هذا اليوم تحرك جيش الأفرنج من صفوريا قاصداً طبرية لتخليصها ،

ومادرى أن السلطان وجنده قد أضرموا النار فيها ، فأصبحت رماداً تذروه الرياح . حاول الأفرنج فى هجومهم هذا أن ينفذوا الخطط التى رسموها لأنفسهم ، ويقطعوا الطريق على السلطان وجيشه ، ويستولوا على ينابيع المياه ، فكان من أمرهم أنهم كانوا كلما تقدموا خطوة وقعوا تحت نيران عدوهم ، فلم يثبتوا ، أو تحيط فرق المسلمين ببعض فرقهم وتسوقها إلى حيث المعتقلات وحظائر الأسرى

أضف إلى هذا مالاقاه الأفرنج من الحاجة إلى المياه فى ميدان القتال ، وقد كانوا أرادوا الاستيلاء عليها حتى تلحق هذه الشدة بجيش السلطان ، فوقعوا فى شر أعمالهم ، وتضاعفت هذه الشدة بتسلط أشعة الشمس عليهم فى هذا اليوم الذى يقع فى شهر هو أشد شهور الصيف حرا ، ولاشجر يظلهم ، ولاماء يروى ظمأهم ، فكان هذا كله أشد عليهم من جيش المسلمين ، فاضطروا إلى النكوص على عقبهم ليدبروا أمرا آخر ، ولم يجد المسلمون حينئذ بدا من أن يثبتوا فى مراكزهم حتى يروا ماذا يفعله عدوهم

أمر قوادُ المسلمين جنودهم بالعودة إلى خيامهم حتى يصبح الصباح ، ولكن الروح المعنوية في جيش الأفرنج كادت تولى الأدبار إذ قضى القوم ليلتهم هذه فى ظلام حالك ملؤه اليأس والقنوط

أما حال المسلمين عندئذ فقد يلمحها الباحث ، إذ قضوا هذه الليلة والأمل يشجعهم على منازلة الأفرنج ، واعتقاد الانتصار يقوى عزائمهم ويبعثهم على التهليل والتكبير والاستعانة بالله على الجهاد

أصبح الصباح وانتشرت حرارة الشمس المحرقة ، فأعانت المسلمين

على الفتك بهؤلاء العطاش ، وهجم السلطان على الأفرنج هجوما عنيفا فرق ركبانهم عن مشاتهم ، وتقهقرت فلولهم إلى التلال ، تلال حطين ، من شدة ما لاقوا من التعب والعطش الشديد ، وقد أخذ اليأس من قلب فريق منهم بقيادة ريموند كل مأخذ حتى استماتوا في الخلاص من شر ماهم فيه ، وتمكنوا من ثلم صفوف المسلمين في ناحية من نواحيها ، وولوا منهازمين غير أن بعض المؤرخين يستدل بهذه الحادثة على خيانة ريموند كما قدمنا ، وقد قضى المسكين نحبه بعد ذلك بثلاثة أشهر . انسحب بقية الأفرنج إلى تلال حطين ، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم فلم يمكنهم المسلمون من ذلك ، وكل ما قاموا به هو نصب خيمة للملك ، وفي مكان هذه الخيمة حصلت الموقعة الفاصلة ، فقد هجم المسلمون على الأفرنج الملتفين حول ملكهم ، والذين استبسلوا فتمكنوا من رد المسلمين مرتين ، إلا أنهم عجزوا في المرة الثالثة على مقاومتهم ، فما لبثت خيمة الملك أن تداعت أركانها ، فانقض المسلمون عليها وأخذوا من كان فيها ، وهنالك عثروا على خشبة الصليب المقدس فأخذوها

ولقد وصل حال الأفرنج إلى حد جعل فريقاً من أتباع ريموند يذهب إلى السلطان في خيمته ويقول له « أيها السلطان ، ما الذي يدعوك إلى التأخر ، إنهض إلى القوم وأنقض عليهم فأنهم لا يستطيعون الدفاع ، إنهم أموات »

وعلى أي حال فقد كانت الهزيمة منكرة ، إذ كانت سبباً في سقوط الأمارات اللاتينية من أساسها ، وكان يوم ٢٦ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ (٤ يوليه سنة ١١٨٧) يوم شؤم على الأفرنج في الشام ، إذ أسر المسلمون

فيه الملك وصاحب الكرك وأخا الملك وغيرهم من وجوه قومهم وذوى الرأى فيهم ، فلم يبق لهم من يصلح بعد ذلك لولاية أمرهم ، ولم يعرفوا فى المدة التى قضوها من يوم أن جاسو خلال هاتيك الديار إلى هذا التاريخ مثل هذه المصيبة الفادحة التى عرضت ملكهم إلى الزوال ، بعد أن أسسوه بدماء غالية ، وأرواح كثيرة ، وأموال طائلة

أقيمت للسلطان صلاح الدين خيمة إجتمع فيها بذوي الرأى من أتباعه وأخصائه ، فسجد الجميع لله شكراً على ما أنالهم من نصره ، ثم أمر بالأسرى فأحضر له الملك وصاحب الكرك ، فأجلسهما بداخل خيمته ، وقد أخذ العطش من الملك كل مأخذ ، فطلب ماءً فأحضر له ماء مثلوج ، فشربه إلا قليلا منه ناوله صاحب الكرك ، فقال السلطان حينئذ : « إنا لم نعطه هذا الماء حتى يكون آمناً منا على نفسه » ثم قام وأنب صاحب الكرك على سوء صنعه مع قافلة المسلمين ، وتطاوله على مقام النبوة ، ثم ضرب عنقه بيده تنفيذاً لوعده وبراً بيمينه وقسمه ؛ وعند ذلك رُعب الملك فطيب السلطان خاطره وأمر به فأرسل إلى دمشق هو وبقية قومه بكل حفاوة وإكرام

ويذكر بعض المؤرخين أن السلطان أمر بفريق من الأسرى يبلغ عدده زهاء (٢٠٠) فقتلوا ، وينكرون عليه فعلته هذه التى جاءت على غير ما اعتاد في معاملته الأسرى ، ويعدونها غلطة فظيعة ، ويجعلونها هي النقطة الوحيدة السوداء في تاريخه الأبيض ؛ ويقول استيفن سن في هذا المقام « إنه قتل الأسرى بلا ريب ، ولكنا لم نعرف سبباً لهذه المعاملة الحديثة »

على أن هؤلاء المؤرخين جميعاً لو نظروا إلى أن هؤلاء الذين اختارهم السلطان للقتل من بين الأسرى هم أولئك الذين كانوا يعملون على الأيقاع بالمسلمين دائما ، وأنهم هم الذين كانوا لا يوفون بعهد ولا ميثاق ، وأنهم هم الذين كانت تنقاد إليهم العامة ، وأنهم هم الفئة التى كانت تعادى المسلمين وتبالغ فيه أشد المبالغة من طريق التعصب الدينى ؛ لو أنهم نظروا إلى هـذا كله لأقروا بأن للسلطان عذراً فيما نسبوه إليه

ومهما يكن من الأمر فقد فرح المسلمون بهذا النصر فرحاً كبيراً ، حتى أخذ الشعراء والكتاب يصفون هذه الموقعة الهامة فقال أبو الحسن على بن الساعاتى من قصيدة

جاءت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعز على العوالى أن يهونا
وما طبرية إلا هـديّ ... ترفع عن أكف اللامسينا
قسمت حتى رأت كفؤاً فلانت ... وغاية كل قاس أن يلينا
قضيت فريضة الأسلام منها ... وصـدقت الأمانى والظنونا
تَهز عواطف القدس ابتهاجا ... وتُرضى عنك مكة والحجونا
لقد جردت عزما ناصريا ... يحدث عن سناه طورسينا
فكنت كيوسف الصديق حقاً ... له هوت الكواكب ساجدينا

وهي قصيدة طويلة . وكذلك قال العماد كثيراً ، وكأنى بشوقى بك شاعر مصر اطلع على هذه الموقعة فقال

يعرف الدين مَن صلاح ويدرى ... من هو المسجدان والأسراء

إنه حصنه الذى كان حصناً وحماه الذي به الاحتماء
يوم سار الصليب والحاملوه ومشى الغرب قومه والنساء
بنفوس تجول فيها الأمانى وقلوب تثور فيها الدماء
يضمرون الدمار للحق والنا س ودين الدين بالحق جاؤا
ويهدون بالتلاوة والصلبـــان ما شاد بالقنا البناء
فتلقتهموا عزائم صدق نص للدين بينهن حباء
مزقت جمعهم كل أرض مثلما مزق الظلام الضياء
وسبت أمر الملوك فردتـــه وما فيه للرعايا رجاء
ولو أن المليك خيف أذاه لم يخلصه من أذاه الفداء

وقد نشرت جريدة الشعب في عددها رقم ٧٣٨ من السنة الرابعة سنة ١٩١٤ م قصيدة للأمير شكيب أرسلان مبعوث حوران متضمنة شيئاً من سيرة صلاح الدين وحروبه فقال عن واقعة حطين

فسل عنه في حطين يوماً عصبصبا غداة لواء الحق عزز حامله
وعن ملك الأفرنج وهو أسيره وأرناط إذ تبكي عليه حلائله
هنا انتصف الشرق الأصيل من الذى أغار عليه واستردت طوائله

وللحكيم أبى الفضل قصائد كثيرة في صلاح الدين قال فى واحدة منها عن واقعة حطين

ما لى أرى ملك الأفرنج فى قفص أين القواضب والعسالة السمر
والاستبار إلى الداوية التأموا كأنهم سد يأجوج إذا استجروا
يا واقعة التل ما أبقيت من عجب جحافل لم يفت من جمعها بشر

ويا ضحي السبت ماللقوم قد سبتوا تهودوا أم بكأس الطعن قد سكروا
حطوا بحطين ملكا كافياً عجبا في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أهوى إليهم صلاح الدين مفترسا وهو الغضنفر أعدى ظفره الظفر
أزاءه زعماء الساحلين معاً مصفدين بحبل الفهر قد أسروا
يتلوهم صلبوت سيق منتكساً وحوله كل قسيس له زبر

بقي صلاح الدين حيث أقيمت له الخيام مدة يومه ، ولما أصبح عاد إلى طبرية وأراد منازلة قلعتها فراسلته زوج ريامونده وقد علمت ماوقع فيه قومها في حطين ، فطلبت منه الأمان فأمنها وهدأ روعها ، فخرجت هي وأولادها وحاشيتها وأوصلها إلى حيث أرادت بكل إحترام وتجلة

تقدم السلطان بعد ذلك تقدماً سريعاً في جهات فلسطين لا يصح أن يقال عنه إنه حرب أو نزال بل تتمة لما حازه من النصر في واقعة حطين ، فما هو إلا أن يظهر أمام القلعة أو المدينة فتسلم له الأهالي والأجناد الذين ذهبت قوادهم وفنيت رجالاتهم وقل زادهم وعز نصيرهم وأسر ملكهم . ولقد ساعد السلطان في حركاته هذه انحياز المسلمين في تلك البلاد إليه ، ورغبتهم في عدله وإحسانه ، وأمل الكثير من أسرى المسلمين في أن يكون خلاصهم على يديه ، وحتى بعض الأفرنج الذين ذاقوا ظلم إخوانهم رغبوا في الانضمام إلى صفوفه ، فانحاز القوم إليه ولم يبق من يعارضه سوى الحاميات القليلة المنتشرة في الأمكنة المختلفة ، والتي من واجبها أن تقف أمام العدو القادم ، ولكنه وقوفا سرعان ما يزول لشدة المهاجم وضعف المدافع ، وعلى هذا فلم يصادف السلطان في تقدمه أدنى معارضة

سار السلطان بعد أن تسلم حصن طبرية نحو عكا وحاصرها فامتنع أهلها أولا ثم لم يلبثوا أن استأمنوه فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، ثم خيّرهم بين أن يقيموا ويدفعوا الجزية ، أو يرحلوا ، فاختاروا الرحيل خوفا من المسلمين ، وأخذوا معهم من المتاع ما أمكنهم حمله ، وتركوا الباقي للمسلمين ، فدخلوها يوم ٢ جمادى الأولى سنة ٥٨٣ (١٠ يوليه سنة ١١٨٧) وصلوا صلاة الجمعة في جامع كان الأفرنج قد اتخذوه كنيسة من يوم أن استولوا عليها . وزعت الغنائم وكانت كثيرة جداً لأن المدينة فرضة يقصدها التجار من كل ناحية . أقام فيها السلطان قليلا يرتب أحوالها وينظم شؤونها ، ثم أمر أخاه العادل بالزحف من ناحية مصر ، فقام واستولى على حصن مجدل يابا ومنه سار إلى يافا فحاصرها وملكها وأسر كثيراً من أهلها

وكان السلطان أيام مقامه فى عكا قد أرسل السرايا إلى جهاتها ، فسار الجند إلى الناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية والشقيف والفوله فملكوها كلها

كذلك بعث بالرجال إلى نابلس فامتلكها بعد أن استولى على سبصطية وأرسل إلى تبنين ليستولى عليها ويقطع الميرة عن الأفرنج في صور ، فنازلها الجند ووجدوا أن الموقف يحتاج السلطان ، فأرسلوا فى طلبه ، فذهب مسرعا من عكا حتى وصلها وحاصرها فاستأمنه أهلها ، ثم أخذ يسير نحو صيدا ، فاستولى من غير عناء على صرفند ، وما كاد يسمع صاحب صيدا خبر زحف السلطان حتى أمر أصحابه بالرحيل فأخلوا المدينة فاستولى عليها السلطان ساعة وصوله ، وفى اليوم التالى وصل بجنده إلى بيروت فامتنع أهلها بها ،

فزحف عليهم من ناحية من نواحيها ، وبينما أهلها يجدون فى مقاومته إذ سمعوا صوتاً من بينهم يقول بأن المسلمين قد دخلوا البلد من الناحية الأخرى ، فارتفعت الجلبة وزاد الهرج والمرج واختل نظام المقاتلة حتى أصبح فى غير مقدور القواد أن يعيدوا الحال إلى ما كانت عليه ، فرضوا بالتسليم بعد حصار ثمانية أيام

أما إستيلاء السلطان على جبيل فكان نتيجة فك أسر صاحبها من معتقله بدمشق ، وذلك لأنه سمع بمقدم السلطان إلى بيروت فتكلم مع حاكم دمشق وطلب منه أن يسلم بلده ويفك أسر المسلمين فيها إذا رضى السلطان إطلاق سراحه ، فأرسل إلى السلطان مكبلا ، فقبل السلطان شرطه وتسلم جبيل وأطلق سراحه ، وكان في إطلاقه أذى كبير للمسلمين سنرى تفصيله بعد

لما رأى السلطان أن قد ثبتت قدمه فى تلك الجهات ، وجه همته نحو فتح عسقلان لأنها كانت عقبة بين الشام ومصر ، ولأنها كانت باب القدس أيضاً ، ولم يوجه همه نحو صور التى كانت فى ذلك الوقت من غير قائد يقود الخليط الذى وصل إليها من كل النواحى التي افتتحها السلطان ، ظناً منه أنها من المنعة والقوة بحيث لا يستطيع فتحها ، فرأى أن يبقى على نشاط جنده بأرسالهم إلى جهات يمكن فتحها بسهولة ، وأن يعزلها فيمنع عنها كل ما يمكن أن تنتفع به ، وهى غلطة للسلطان عادت على المسلمين بويل كبير ؛ ولولا بقاؤها فى يد الأفرنج لطهرت البلاد الشامية كلها قبل أن يقضى السلطان بقية أيامه . غير أن بقاءها وقدوم كونارد من ناحية

القسطنطينية إذ ذاك ، ووصوله إليها بأمواله الطائلة ، وتوسل أهلها إليه فى أن يحميها وأن يقوم على صيانتها ، جعل للأفرنج مركزاً يفدون إليه ، ورجلا يعتمدون عليه ، فكان من أمرها وأمرهم مع المسلمين ماسنراه بعد

ولولا قدوم هذا الرجل ، لتسلم صلاح الدين المدينة فى يومين ، لأن أهلها كانوا قد أخذوا يراسلونه في التسليم على شروط ، ولكن بينما هم في حالهم هذه إذ قدم عليهم هذا الأمير واشترط أن تكون المدينة له دون سواه ، فقبلوا ، فأخذ يصرف أمواله فى حفر الخنادق وتجديد الأسوار وإقامة الأبراج وتدريب الجند حتى غير مركز الأفرنج بالساحل تغييراً لولاه لما بقى لهم أثر فيه ولما تمكنت الحملة الثالثة الصليبية من عملها

أراد السلطان أن يحول وجه هذا المركيز عن تحصين المدينة ، وأن يحتال عليه حتى يسلمها له ، وكأنه أدرك الخطر من مقدمه ، فأحضر أبا المركيز وكان أسيراً فى دمشق وعرض عليه أن يفك أسره إن هو كف عن العمل ، فلم يتحرك قلب كونارد وقال : إنه لا يتنازل عن حجر واحد من أحجار المدينة لينقذ به أباه ، وإن والده هذا قد عاش طويلا فيكفيه ما قد عمر ، فليقتله السلطان إن شاء ، فلم ير هذا بدأ من إرجاع الرجل إلى محلة اعتقاله والرحيل إلى غيرها

فتوجه نحو عسقلان يوم ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٨٣ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٨) وحاصرها هو وأخوه العادل ومكثوا على حصارها أربعة عشر يوماً جاءوا فى أولها بملك القدس وعرضوا على الأهالى أن يفكوا أسره إن سلموا المدينة فامتنعوا ، فراسلهم الملك بنفسه فأبوا عليه ذلك ،

فهاجمهم السلطان واستولى على المدينة سلخ جمادى الآخرة (٤ سبتمبر) وخرج أهلها بأولادهم ونسائهم وذويهم وأمتعتهم إلى القدس ، أما السلطان فقد بعث بالسرايا إلى جهاتها فاستولى على الرملة وفتح الداروم وغزة ومدن الخليل وبيت لحم وغيرها ، وأصبح ولا شيء أمامه إلا المسير إلى القدس نفسها

في تلك المدة القصيرة من انتصار السلطان في واقعة حطين حتى تملكه عسقلان ، أي في مدة شهرين ، كان قد استولى على تلك النواحي كلها ، فكان حقاً علينا أن نلاحظ هذه السرعة الفائقة حد الوصف ، والتي لم يظهر بها السلطان في غير هذا الوقت ، كما أنه يجب ألا نغفل عند سرد هذه الحوادث ما ظهر من ذكائه وبعد نظره في الأمور ، فقد انتهز الفرص وعرف كيف يستخدم الظروف ، فافنى وقته وراحته في سبيلها حذرا منه ان تضيع فما ضاعت

أصبح طريق القدس مفتوحا أمامه ، فسير جندا من المخلصين لأنقاذ المدينة المقدسة ، فساروا يشجعهم الشعور الديني والأخلاص في العمل له ، والأمل العظيم في النجاح ، لأنهم ما كانوا إلا سائرين في طريق الله ، كما كان الأفرنج في أول أمرهم في تلك الديار ، وإليك ما أرسله أحد أسرى المسلمين بها على لسان المسجد الأقصى ، يخاطب السلطان عند ما فتح بلاد الساحل

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت إليك ظلامة ... تسمى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس

ولما كان السلطان يعرف لها هذه القيمة في أعين المسلمين والأفرنج على السواء ، أراد ألا يتعرض لها بسوء ولا يمسها بأذى ، واختار دخولها بطريق صلح بينه وبين أهلها دون أن يسلط عليها من ناره الحامية ما يهدم أبنيتها ويهشم مساجدها وكنائسها ، وكأنه أراد أن يعيد سيرة سيدنا عمر رضى الله عنه فى فتحها مرة أخرى ، فأوفد الرسل إلى أهلها يطلب منهم التسليم على شروط وضعها ، قائلا لهم ما ترجمته — نقلا عن كتاب إستانلى لين بول « إنى على اعتقاد تام بأن القدس هى بيت الله المقدس كما تعتقدون ، وليس في عزمى أن أتعرض لبيت الله بأذى الحصار أو ضرر الهجوم » بيد أن الأفرنج أبوا عليه ما أراد من غير أناة ولا روية ، وعلى ذلك صمم السلطان ألا يأخذ المدينة بغير الطريق الحربى ، طريق السيف ، طريق الشرف والشهامة والأباء ؛ ولقد كانت المدينة فى ذلك الحين من غير قواد كغيرها من البلاد ، ولم يكن بها سوى بليان صاحب الرملة ، وقد كان من بين الأسرى فى واقعة حطين ثم إستأذن السلطان في الرحيل إلى القدس ليأخذ امرأته وأولاده ، وحلف ألا يمكث بها أكثر من ليلة واحدة ، على أنه عند ما ذهب إليها ووجدها من غير قواد ، وأن الناس قد التفوا حوله ، وقد أتى إليه البطرك وأخذ يستميله للبقاء فيها ، وما زال به حتى أنساه عهده مع السلطان ، وكثيراً ما نسى القوم عهودهم مع المسلمين ، تأثر بليان فرضى البقاء معهم وتولى قيادتهم ، وكان قد تجمع في المدينة عدد عديد من الرجال القادمين من البلاد المجاورة التى استولى عليها السلطان حتى بلغ عددهم ٦٠ ألفاً ، عدا النساء والأطفال ، فأخذ

بليان يعمل على تحصين المدينة ، وفتح له البطرك كنوز الكنيسة يأخذ منها ما يشاء

لما أبى الأفرنج على السلطان تسليم المدينة تحرك بجيشه نحوها وطاف حولها ، ثم خيم بالجهة الغربية منها يوم ١٥ رجب سنة ٥٨٣ (سبتمبر سنة ١١٨٧) وصمم على الاستيلاء عليها مهما كلفته من الدماء ، غير أنه ما كاد يظهر أمامها حتى وجد جمعاً غفيراً قد أخذ يدافع عن أسوارها ، فعلم أن المركز حرج ، وأن الواجب يقضى عليه بأن يبحث عن جهة أخرى ينازل المدينة منها ، لا سيما وأن الشمس كانت تعاكس المهاجمين فلا يستطيعون العمل إلا بعد الظهر ، أي بعد تحولها إلى الجهة الأخرى . على أن ابن الأثير يقول إن صلاح الدين طاف بالمدينة خمسة أيام ووصل أخيراً إلى جهة الشمال التى وجدها أصلح مكان لنزال الأفرنج منه لضعف أسواره

ظن القوم أن رحيل السلطان عن الجهة الأولى رحيل عنها كلية ، فذهبوا إلى الكنائس يشكرون الرب ويقدمون له فروض الحمد لرحيل عدوهم ، فأمضوا وقتهم فى سرور وفرح ، جاهلين ما أخفاه لهم القدر ، غير عالمين بما عليه المسلمون إذ ذاك من قوة وعزم أكيد على دخول البيت المقدس مهما كلفهم ذلك ، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى رأوا أن السلطان قد اتخذ جبل الزيتون مركزاً لجنده ، وبدأ يهاجمهم وينازل مدينتهم نزال المستميت ، وهم في داخلها يرون الموت أيسر عليهم من أن يملك المسلمون مدينتهم المقدسة ، ويرون — كما يقول إبن الأثير — أن بذل أنفسهم وأموالهم وأولادهم بعض ما يجب عليهم لحفظها . اشتد الفريقان في

القتال ، كل يراه ديناً وواجباً ، فلا يحتاج فيه إلى باعث يبعث فيه الهمة والنشاط ، واستمر القتال والنزال حتى تمكن المسلمون من عبور الخندق ونقب السور تحت وابل من قذائف الأفرنج المتهالكين على الدفاع عن بلدهم العزيز ، ولكنهم لم يلبثوا أن حل اليأس بهم ، ولبست المدينة ثوب الحزن والهلع ، ورغب العامة فى التسليم ، والقادة فى الموت ، فأشار عليهم البطرك بأنهم بذلك يعرضون أولادهم ونساءهم إلى الذل والعبودية فى أسر المسلمين ، فقر قرارهم جميعاً أن يرسلوا رسولا إلى السلطان يطلبون الصلح ، واختاروا لذلك بليان ، فذهب وقابله السلطان بحفاوة وإكرام ، فلما سأله الصلح ، قال له السلطان « هل لمدينة وقعت في الأسر أن تطلب شروطاً للصلح ؟ » رأى بليان امتناع السلطان فقال « أيها السلطان ، إعلم أن فى هذه المدينة خلقاً كثيراً لا يعلم عددهم إلا الله ، وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ، ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم ، وهم يكرهون الموت ويرغبون فى الحياة ، فلو رأينا الموت لا بد منه ، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ، ونحرق أموالنا ومتاعنا ، ولا نتركم تغنمون ديناراً أو درهماً واحداً ، ولا تأسرون ولا تسبون رجلا أو امرأة أو طفلا ، فإذا فرغنا من هذا قمنا على الصخرة نخربناها ، وألحقنا المسجد الأقصى وغيره من الأماكن المقدسة بها ، ثم بعد ذلك نقتل مَن عندنا من أسرى المسلمين وهم زهاء خمسة آلاف أسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً إلا قتلناه ، ثم بعد ذلك نخرج إليكم فى جمعنا ، نقاتلكم قتال من يريد أن يحمى دمه ونفسه ، فلا يقتل الرجل منا حتى يقتل منكم أمثاله ، فنموت أعزاء أو نظفر كرماء »

فلما رآى السلطان من بليان هذا جمع قومه واستشارهم ، فأشاروا عليه بأيقاف الحرب ، والاتفاق مع القوم عما لا يخرجه عن يمينه التي حلفها ، بعد ما أبوا عليه الصلح ، وانتهى الحال بأن عرض على بليان أن يسمح لهم بالخروج فى مدة أربعين يوماً ، يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن لم يستطع ذلك فهو أسير ؛ فرضى بليان ذلك وذهب إلى قومه وأعلمهم الحال ، فرضوا بها تحت عامل اليأس والجزع ، وتنفس الناس الصعداء ، وبكوا بكاء مراً ، وأخذوا يقبلون الأمكنة المقدسة مودعينها وداعاً ابدياً

وقد نظم ابن جبير قصيدة يمدح بها السلطان صلاح الدين بعد فتح بيت المقدس يقول فيها

فضيلة فتح كان ثانى خليفة من القوم مبديها وأنت معيدها

بدأ السكان يجمعون متاعهم ويخرجون من حيث أمرهم السلطان حيث أقام العمال لتسلم الفدية منهم وهم مفارقون ، وكان أول يوم بدأوا بالخروج فيه هو يوم الجمعه ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ (٢ اكتوبر سنة ١١٨٧) يوم الأسراء ، فصدقت نبوءة محيي الدين قاضى حلب ، وقد حضره السلطان ليكون خطيب القدس فى يومها الأكبر فى الجامع الأقصى بعد أن انقطعت فيه الصلاة هذا الزمن كله منذ احتله الأفرنج ، وقد كان يوماً مشهوداً لكثرة من حضر للصلاه

على أن هذه الفدية لم تقرر إلا على رجال الجيش وأتباعهم ، ذلك لأن السلطان أذن للاهالى المسيحيين بالسكنى في أملاكه ، يتمتعون بكل

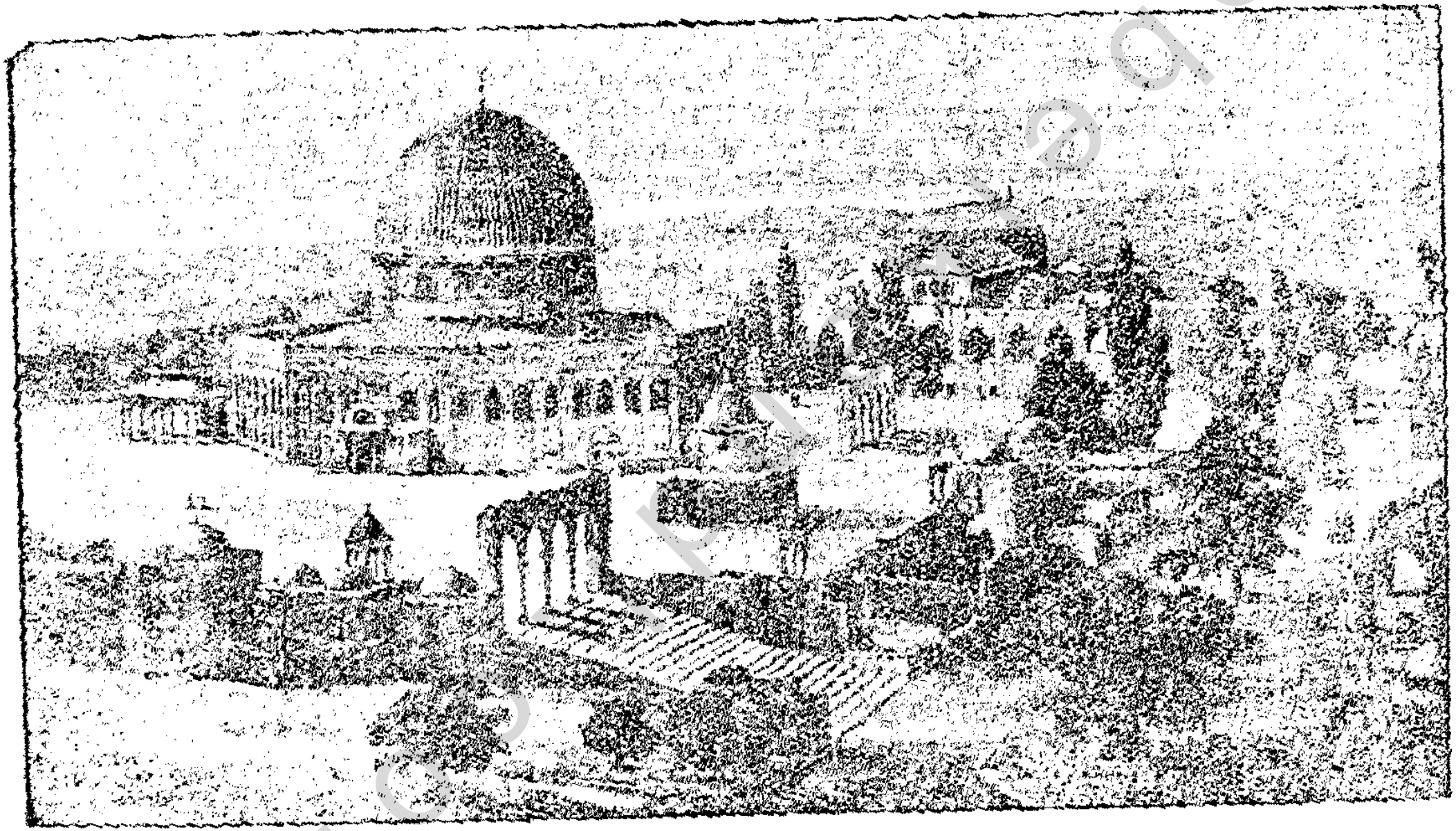

بيت المقدس

الحقوق المدنية ، كما سمح قبل ذلك للأفرنج الذين رغبوا فى أن يكونوا رعية له

مكث السلطان خارج المدينة حتى يغادرها من أراد ، لأنه رأى ألا يجرح عواطف علية القوم فيها ؛ فلما خرجوا دخلها ، والأمراء والكبراء والعظماء فى دولته حافين من حوله ، يقدمون له فرائض التبريك والتهانى

قام بليان بدفع ٣٠ الف دينار فدية لطائفة المساكين والفقراء ، وقام الملك العادل فطلب من أخيه السلطان إعفاء سبعة آلاف ، وكذلك فعل السلطان بعشرة آلاف ؛ ويقول استيفن سن إن السلطان قد سمح لعدد كبير بالرحيل من غير فدية ، ويروى استانلى لين پول أن أرنولد يقول إن السلطان قد قضى يوماً من أول بزوغ الشمس إلى غروبها وهو فاتح الباب للعجزة والفقراء تخرج من غير أن تدفع الجزية

وقد أذن لرجال الدين والناس كافة أن يحملوا معهم ما شاءوا من المتاع والأموال ، فأخذوا معهم ما أرادوا دون أن يعترضهم فى ذلك معترض أو يكدر صفوهم مكدر ، تاركين ما لا قبل لهم بحمله ، فابتاعه المسلمون منهم

ولقد برهن السلطان بما أتاه من الأعمال في هذا الأوان العصيب على همته العالية ونفسه الشريفة وشهامته وكرمه وحنوه وشفقته التى لم يسبقه إليها غيره من أمراء وقته وملوك زمانه ، فلقد أمر القواد بالمحافظة على النظام والسكينة وعدم التعرض للقوم وهم يخرجون ، فلم يحدث ما يكدر صفوهم بأى حال من الأحوال ، ولم يقع أى مثل من أمثلة سوء المعاملة التى تحدث فى مثل هذه الظروف على أيدى الجنود الظافرة المنتصرة

رأى السلطان أن عدداً كبيراً من الأفرنج يحمل على ظهره والديه

الضعيفين ، أو أقاربه المرضى ، فأثر فيه هـذا المنظر أشد التأثير ، وهاله الأمر كثيراً ، ولم يطق صبراً على رؤيته ، فأمر بالمال فأعطى لهم ، وبالدواب فوزعت عليهم ، لتحمل أثقالهم إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس

ولقد كان شفقته بالنساء أكبر ، واحترامه لهن أعظم ، فقد كان بالقدس إذ ذاك إحدى نساء ملك من ملوك الروم ، وقد ترهبت وأقامت تعبد الله وتتقرب إليه ، والتف حولها خلق كثير من الخدم والأتباع ، وكانت ذات مال كبير ، فأمنها السلطان على نفسها ومالها وأتباعها

ولما استأذنته الملكة سيبيل فى الرحيل هي وإتباعها ، أظهر لها من الاحترام والتأسف على حالها ما أنطق الألسنة بالشكر له والثناء عليه ، خاطبها بكل حنو ورحمة ، وسيرها إلى زوجها السجين بقلعة نابلس ، وسمح لها بالمكوث فيها عنده ، وقد تبعها فى خروجها عدد عديد من النساء الباكيات الحاملات اطفالهن بين أذرعهن ، ولما اقتربن من السلطان تقدمن إليه وخاطبنه «أيها السلطان! اترانا الآن راحلات عن هذه الديار ، ونحن بين زوج أو أم أو ابنة لأولئك الجند الذين لا يزالون في أسرك ، ونحن الآن نغادر هذه الدار إلى الأبد ، وهؤلاء الجند الذين نتركهم هم عدتنا فى حياتنا وسلاحنا فى أيامنا ، فأذا مافقدناهم فقد فقدنا الحياة ، أما إذا وهبتهم لنا فقد وهبت لنا النعيم ، وخففت بذلك آلامنا وازحت بؤسنا وأبعدت عنا شقاءنا ، فأنا لا نكون على ظهر هذه الدنيا من غير مساعد أو عائل »

تأثر السلطان بما سمع وما رأى من بكائهن فبكى بكاء شديداً ، وأمر

بأعطاء الأمهات أبناءهن ، والزوجات بعولتهن ، والبنات آبائهن ، وحلف ليعاملن من بقى في الأسر بكل إحسان ورحمة

هذه المعاملة الحسنة من السلطان صلاح الدين للأفرنج كانت تخالف ما كانوا هم عليه فى معاملتهم حتى بعضهم بعضا ؛ وإليك مايرويه الأمير على عن مل المؤرخ الأنجليزي « ذهب عدد من المسيحيين الذين غادروا القدس إلى انطاكية ، فلم يكن نصيبهم من أميرها إلا أن أبى عليهم أن يضيفهم ، فطردهم ، فساروا على وجوههم فى بلاد المسلمين فقوبلوا بكل ترحاب » ويزيد هـذه وضوحاً مايرويه استانلى لين بول عن ارنول إذ كان موجوداً وقت هذه الحادثة ، وإنما يستبدل كلمة أنطاكية بطرابلس مضيفاً إليها أن أهالى طرابلس لم يكتفوا بطرد المهاجرين ، بل أرسلوا فى أثرهم من نهب منهم متاع الحياة الذى خرجوا من القدس به . ويقول الأمير على أيضاً « ولقد وصف ميشود حال أولئك الذين طردوا من القـدس وما لاقوه من إخوانهم المسيحين من عدم احترام الأنسانية ، فقد تضور عدد منهم جوعا في سوريا ، وهم على أشدما يكون من البؤس ، وقد أغلقت طرابلس أبوابها فى وجوههم — ثم قال ميشود — وقد اضطرت إحدى السيدات أن تلقى بولدها في اليم وهى تلعن أولئك المسيحين الذين أبو أن يضيفوها أو يؤوها »

قيل للسلطان والبطرك خارج بأمواله وذخائره ، وكانت كثيرة جداً لم يصرفها في فداء الفقراء والمساكين — كما يقول استانلى — بعدأن وصف البطرك بأنه كان من غير ضمير ولا وجدان « لم لا تصادر هذا فيما يحمل ،

وتستعمله فيما تقوى به أمر المسلمين ؛ فقال لهم السلطان « لا آخذ منه غير العشرة الدنانير ، ولا أغدر به » وفى ذلك يقول استانلى « قد وصل الأمر إلى أن سلطاناً مسلماً يلقى على راهب مسيحي درساً فى معنى البر والأحسان »

على أنه ليست هذه هى المرة الوحيدة التي ظهر فيها صلاح الدين والمسلمون بمظهر الرحمة والشفقة مما لم يخطر على بال أولئك الغزاة أيام انتصاراتهم الأولى ، فالتاريخ لا ينسى ما اقترفته أيدى جنود جودفرى عندما خطت بقدمها فوق أراضى القدس سنة ١٠٩٩ وإليك ما قاله ميشود عند دخولهم القدس كما جاء فى كتاب الأمير على « كان المسلمون يُقتلون فى الشوارع والبيوت ، ولم يكن للقدس من ملجأ يلجأ اليه من نتائج النصر ؛ فقد فر بعض القوم من الذبح فألقى بنفسه من أعلى الأسوار ، وانزوى البعض الآخر في القصور والأبراج وحتى في المساجد ، غير أن هذا كله لم يخفهم عن أعين المسيحيين الذين كانوا يتبعونهم أينما ساروا » ثم يقول « ولقد اندفع المشاة والفرسان وراء الهاربين ، فلم يسمع فى وسط هذا المكتظ إلا نزعات الموت وسكراته ، ومشى أولئك المنتصرون فوق آكام من الجثث الهامدة وراء أولئك الذين يبحثون عن ملجأ أو مأوي » ثم يقول « ولقد انقطع عمل الذبح ريثما يؤدى القوم صلاة الشكر ، فلما انتهوا منها أعيدت المجزة لحالها الأول » ثم يروى عن ميشود مامعناه « أما أولئك الذين أبقاهم ملل القوم من الذبح أو الأمل في أموالهم فقد ذبحوا عن آخرهم بلا مبالاة ولا شفقة ، حتى اضطر المسلمون إلى أن يلقوا بأنفسهم من فوق المنازل ؛ وقد أحرق بعضهم وهم أحياء ، وسحب آخرون من أخبيتهم إلى الساحات

العمومية وقتلوا على جثث القتلى هناك ؛ وما كانت مياه عيون النساء ولا صياح الأطفال ولا منظر المكان الذى عفا فيه المسيح عن قاتليه لتسكن من ثورة أولئك المنتصرين » واستمر الأمير على يقول « ثم أضاف مل قوله : ولم يتحرك أى قلب حناناً ولا شفقة على أولئك الأبرياء ، ولم يتقدم إلى عمل البر والأحسان رجل واحد نحو ٧٠ ألف نفس ذهبت ضحية بلا ذنب »

جلس السلطان بعد رحيل القوم ينظم أمور المدينة ، فأمر بأصلاح ما تهدم من الأبنية ، وإعادة ما كان قد غيره الأفرنج أيام مقامهم فيها ، فطهر المسجد الأقصى ، وأزال الصليب الكبير ، وكان لذلك رجة كبيرة من جانب المسلمين والأفرنج على السواء ، الأولى رجة فرح وسرور ، والثانية أسى وتفجع وتوجع ، ثم أمر بمنبر يعمل للجامع فأخبر بأن نور الدين محمود بن زنكى كان قد أوصى بعمل واحد لا يزال إلى الآن بحلب ، فأحضره وأخذ يرتب بناء المدارس وغيرها مما يعيد للمدنية رونقها وبهجتها وحياتها الأولى ، ثم أزال ما قد بنى في الأماكن الطاهرة ، إلى غير ذلك من غسل الجامع بالماء وإزالة ما علق بالمحل من القاذورات

تقاطر الناس شاعرهم وناثرهم وعالمهم وكاتبهم ومؤرخهم ، ينثرون من آيات الشعر وحكم المقال ما قد ملأ الكتب الطوال ، وإليك شيئاً مما قاله أبو الحسن بن على الجوينى من قصيدة طويلة

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان
هذي الفتوح فتوح الأنبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان
أضحت ملوك الفرنج الصيد فى يده ... صيداً وما ضعفوا يوماً وما هانوا

تسعون عاماً بلاد الله تصرخ والأسلام أنصاره صم وعميان
فالآن لبى صلاح الدين دعوتهم بأمر مَن هو للمعوان معوان
إذا طوى الله ديوان العباد فما يطوى لأجر صلاح الدين ديوان

وقال محمد بن أسعد بن على بن معمر الحلبي المعروف بالجواني نقيب الأشراف بالديار المصرية من قصيدة

أترى مناماً ما بعينى أبصر القدس تفتح والفرنجة تكسر ؟
ومليكهم فى القيد مصفود ولم يُر قبل ذاك لهم مليك يؤسر
فتح الشآم وطهر القدس الذي هو في القيامة للأنام المحشر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها فاروقها عمر الأمام الأطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده ولأنت في نصر النبوة حيدر

مكث السلطان يرتب الأمور وينظم الاحوال نحواً من شهر، حرك بعده الركاب نحو صور التى أسعدها الحظ بذلك الذي قدم إليها وهو كونارد كما سبقت الأشارة إليه . كذلك أسعدتها الأيام برضاء السلطان بذهاب أولئك الأجناد الذين كان يستولى على بلادهم وحصونهم ومعاقلهم إليها ، فتجمع فيها جند كثيرون كانوا حصنها الحصين ودرعها القوية ،وقام كونارد بتعميق الخنادق حولها وإقامة أسوارها حتى جعل نزالها أمراً عصيباً ونوالها شيئاً مستحيلا ، فوق ما كان عليه مركزها من المنعة الطبيعية ؛ استدعى السلطان الأسطول ووقف على تل بقربها يراقب الموقعة ،غير أن الأسطول حبطت مساعيه ، فأسر الأفرنج منه كثيراً . بيد أن المسلمين تقدموا نحو أسوار المدينة ، إلا أن هجوم الشتاء وملل بعض القواد صير

فك الحصار أمراً مقضياً ، فتقهقر السلطان وهو على أشد ما يكون من الكدر ، لأنه لا يستطيع إلزام القواد أن يعملوا على غير رغبتهم ، ولأنه يعرف مقدار أثر مثل هذا التقهقر فى النفوس ، فرحل عنها في أواخر شوال سنة ٥٨٣ (أوائل يناير سنة ١١٨٨) إلى عكا ، ولو أدرك هؤلاء القواد الراغبون فى ترك الحصار أن صور هى المدينة الوحيدة الباقية للأفرنج ، وهى التى فيها الذخيرة والميرة وإليها يصل المدد ، ومنها تنبعث القوة ، لتيقنوا أن بقاءهم أمامها قليلا ، والاستماتة فى نزالها حتى تذعن لهم من أوجب الواجبات ومن أهم الأعمال ، ولكن الله قدر ذلك فكان فى بقائها خطر هدد المسلمين أياماً كما أنه بعث الأمل في نفوس الأفرنج

وعلى هذا كان في ارتداد السلطان عن صور تغيير فى حالة النصر الذى حازه فى أيامه الماضية ، وإذن وجب علينا أن نذكر الخطأ الذى ارتكبه السلطان فى مسألة صور هذه ؛ ارتكب السلطان خطأ حيال صور أولا عند ما سلك سياسة ترك أهالى البلاد التى استولى عليها أحراراً يختارون البلاد التى ينزلون فيها أو يهاجرون إليها ؛ ولو أن جماعة من المؤرخين يقولون إن الغلطة ليست هذه إنما هي تأخيره الهجوم عليها من أول الأمر ؛ غير أن هؤلاء يخطئون ، فقد تكون الحالة واحدة فى عكا مثلا لو تركها السلطان فى أيدى الأفرنج واستولى على صور ، فهل يرحل الأهالى إلا إلى بلاد حصينة تكون فى أيدى الأفرنج لا في أيدى المسلمين ؟ لذلك أرى أن الخطأ لم ينتج من تأخير الاستيلاء على صور بل نتج كما قدمنا من السياسة التى جرى عليها فى فك الأسرى والسماح لهم بالذهاب أنّى شاءوا

أما غلطته الثانية فقد نشأت من سرعته فى فك الحصار عن صور ، وعدم الثبات أمامها حتى تذعن ، وفشله في إقناع قواده بضرورة استمرار الحصار ، إذ لولا تقهقرهم عنها لما تمكن الأفرنج القادمون من أوروبا من الانضمام إلى إخوانهم فيها فشوه صورة الانتصار الذى أحرزه السلطان تشويها تاماً . فقد يكون للسلطان عذر فى ذلك ، فما كان القواد الذين معه إلا أمراء من ذوى الأقطاعات ، مختلفى المشارب والغايات ، وقد اشتركوا معه فى الحرب رغبة منهم فى الغنائم ، فلما رأوا أنفسهم وقد امتلأت أيديهم مما طمعوا فيه ، ملوا الحرب وآثروا التمتع بمغنمهم فى ظلال الراحة والطمأنينة ، ورأى السلطان هذا بادياً عليهم فى مواضع شتى ، فلم يجد بداً من مجاراتهم فيما يريدون

ويرى بعض المؤرخين أن للسلطان غلطة أخرى هى إقتصاره على حصار صور من البر ، ولو أنه حاصرها من البحر فمنع المدد الاوروبى عنها لسلمت إليه جوعاً ، غير أن فيما قدمنا ما يكفى لتبرير ما فعله السلطان

ومهما يكن فقد هبت أوروبا عند ما سمعت باستيلاء المسلمين على القدس ، وأخذت أصوات القساوسة والرهبان تردد الدعوات فى كل ، مكان حتى فى الأمكنة التى لم تصلها دعوة المنادين الأولين من الصليبيين ، وكان من أثر هذا اشتراك أمبراطور الألمان فى هذه الحرب ، كما أخذ ملك الأنجليز رتشارد الملقب بقلب الأسد نصيباً كبيراً فيها ، وإن شئت فقل أكبر نصيب خلد له فى التاريخ ذكراً يماثل ذلك الذى يحفظه لصلاح الدين

كل ما استولى عليه السلطان فى هذه المدة هو حصن هونين ، وكان

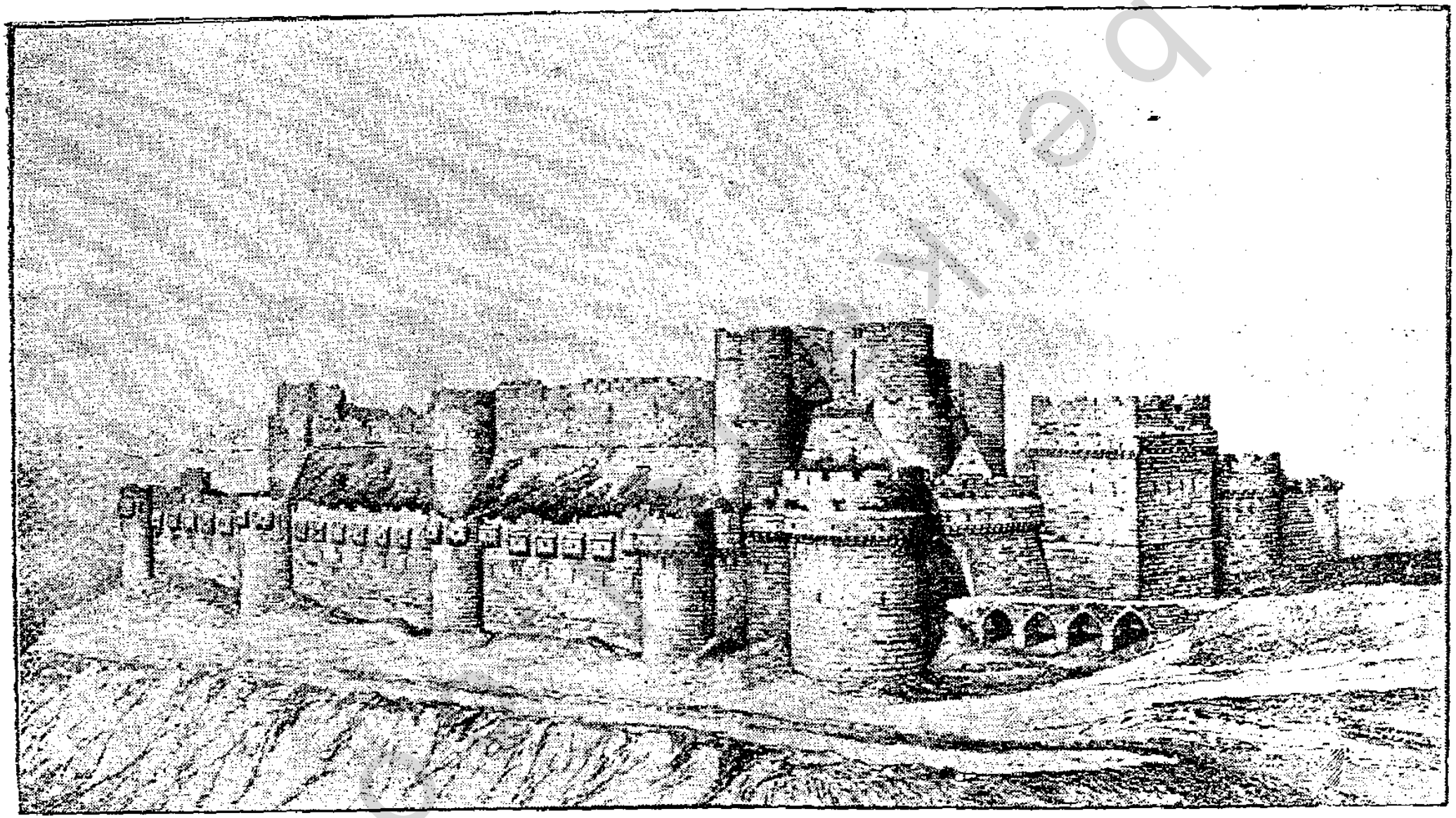

حصن الاكراد

قد ترك حوله حامية تمنع عنه الميرة والذخيرة ، فاضطر الاهالى والجند إلى طلب الأمان من السلطان فأمنهم ؛ أضف إلى هذا أنه أقام على حصون الكوكب وصفد والكرك من يضيق عليها الحصار كيلا تؤذى المارة فى طريقها إليه ، وفعلا انكمش أهلها فيها ولم يجسروا على الخروج ، فكفى الله المسلمين شرهم . على أن السلطان بعد مقامه فى عكا قليلا سار فى قلة من عسكره لمنازلة حصن كوكب ، اعتقاداً منه أن الحصن لا يقوى على حربه ، لكن خاب ظنه ، فخلف عليه من يقوم بحصاره ، وولى وجهه نحو دمشق فوصلها يوم ٦ ربيع الأول سنة ٥٨٤ (١٤ مايو سنة ١١٨٨) واجتمع بالعساكر الكثيرة فرحل بهم إلى بلاد الأفرنج وهى طرابلس وأنطاكية ، فنزل بحصن الأكراد ومنه سار يختبر البلاد ثم عاد إلى الحصن ليقوم منه إلى الفتح ، فاستولى على أنطرطوس ، وفيها أطلق سراح الملك جوى بعد ان أخذ عليه المواثيق والعهود ليغادر الشام إلى أوروبا ، وألا يجرد على السلطان سيفاً مرة أخرى ، فذهب الملك إلى صور ، وأبى عليه كونارد رياستها قائلا إنه هو الذى حماها ، ولما لم يكن لدى جوى من الجنود ما يرغم بهم كونارد عاد إلى طرابلس ، وفيها التف حوله عدد من بقايا الحملات الصليبية الماضية ، ومثله من الحملة الجديدة ، فنزل بهم على عكا مع إخوانهم أهل صور كما سيجيء بعد

سار السلطان بعد أنطرطوس حتى أتى مرقب ، فوجد أهلها قد أخلوها ، فسار إلى جبلة واستولى عليها ، وكان قد جاءه قاضيها يطلب منه المسير إليها . سار السلطان بعدها إلى اللاذقية واستولى عليها بعد ثلاثة أيام

من مهاجمتها ومنها ذهب إلى قلعة صهيون فامتلكها وامتلك ما حولها من القلاع ، فأخذ سرمينية وبرزية بعد أن أسر صاحبها وامرأته وأولاده وفيهم إبنة كانت عروساً قد فرق العسكر بينها وبين زوجها فى المعركة ، فأمر بالبحث عنه ورده إليها ، وهذه مكرمة كبرى من السلطان أخرى ، على أن ابن الأثير يقول إن صلاح الدين لما قارب أنطاكية سير صاحب برزية ومن معه إليها وكانت امرأة صاحب برزية أخت زوج صاحب أنطاكية التى كانت تكاتب صلاح الدين وتهاديه وتعامه كثيراً من الأحوال التى تؤثر فأطلق هؤلاء من أجلها . يصح لنا أن نأخذ بهذا فقد امتدت أيدى النساء فى شؤن الأفرنج حتى عده مؤرخوهم عاملا من عوامل الضعف الذى لحقهم فى الشام كما تقدمت الأشارة إليه

افتتح السلطان بعد ذلك درب ساك وبغراس وهو حصن قريب من أنطاكية نفسها ، فخافه صاحبها ، فطلب منه الصلح والمهادنة لمدة ثمانية أشهر ، فقبل السلطان ذلك لما رأى من ملل العسكر الدفاع والنزال ، ولما كان لصاحب أنطاكية من الكلمة إذ ذاك ، لا سيما وأن طرابلس قد ضمت إلى أملاكه . سار صلاح الدين إلى حلب ومنها إلى دمشق فوصلها في النصف الثانى من شعبان سنة ٥٨٤ (حوالى ٢٠ اكتوبر سنة ١١٨٨) وفيها صرف الجند جميعه إلا حرسه الذى أخذه ونزل به على صفد مع شدة البرد دون أن يبالى به ، ولم يتم ليلته حتى أقام آلات الدمار حولها وحاصرها ، واستمر الحصار نحو ا من شهر سلمت المدينة فى آخره إليه ، فسار منها إلى الكوكب وأقام عليها الحصار وسط هطول الأمطار وزمهرير الشتاء

وزجمرة الرعد ووميض البرق ، يخوض بحرا خضما من الطين والأوحال ، ولم يكد ينتصف شهر ذى القعدة سنة ٥٨٤ (أوائل يناير سنة ١١٨٩) حتى سلمت الحامية ، وقد وصل إلى السلطان في هذا الأوان خبر سقوط الكرك فى يد الملك العادل بعد أن أخرج الأفرنج النساء والأطفال من شدة ما كانوا فيه من الضنك حتي أكلوا لحوم الخيل والدواب ، واضطروا بعد هذا إلى التسليم . ومما يجدر بنا ذكره هنا أن السلطان فتش على هذا النفر من النساء والأطفال وابتاعهم ثم ردهم جميعا إلى أهلهم وذويهم

ورغما من هذا الظفر والانتصار فأن الخطر على أملاك السلطان مازال محدقا ، وأن بقاء الأفرنج فى صور مافتىء ينبى بهذا الخطر

استولى السلطان على هذه القلاع كلها وكانت عقبة كبرى فى سبيله بين مصر والشام ، غير أن بقاء الأفرنج في صور ، ومحاصرته لها الحصار الماضى ، وعدم تمكنه من التغلب عليها ، ثم الرحيل عنها من غير جدوي ، وقيام الأفرنج في أوروبا ينادون قومهم إلى حملة صليبية جديدة لاسترداد البيت المقدس من أيدى المسلمين ، غير مركز السلطان تغييراً كبيراً ، فأنه ما كادت تدخل سنة ٥٨٥ (سنة ١١٨٩) حتى أصبح السلطان فى مركز المدافع عن أملاكه ، لا يستطيع الهجوم على الأفرنج فى بقاعهم ، ذلك لان كونارد فعل كل ماقدر عليه ، فاستطاع أن يكون من هؤلاء المهاجرين إلى صور جيشاً جراراً انتفع به العالم اللاتينى انتفاعاً كبيراً ظهر أثره فى نزال عكا وحصارها . زار السلطان القدس وغيرها لاليرتب أمورها الأدارية وأنظمتها السياسية فحسب ، بل ليتفقد كذلك الحصون والمعاقل ؛ لأنه كان يرى

أخطار زوبعة شديدة تهب من ناحية العدو ، فأراد الاستعداد لها ومقاومتها ، فلقد رأى فى هذا الأوان أن الملك جوى لم يقم بتنفيذ وعده ، وهو مغادرة الشام إلى أوروبا حين فك أسره ، بل جمع الجنود فى طرابلس وتولى قيادتها ، كذلك علم السلطان أن مراكب الأفرنج تأتى إليهم كل يوم بالأمداد والذخائر ، فأخذ يعد العدة لمقابلة هذه الطوارئ كلها ، فجمع الجموع وعسكر بها فى مرج العيون يرقب حركات الأفرنج ليعلم أى الجهات يقصدون ، ولما كان هذا المكان قريباً من حصن شقيف أرنون قام السلطان بحصاره ، فتعهد صاحبه أن يسلمه للمسلمين بعد ثلاثة أشهر ، غير أنه لم يحتفظ بوعده فنقض العهد ، ولكن الحركة التى قام بها الأفرنج أمام عكا حينذاك للاستيلاء عليها استدعت أن يسارع السلطان إليها ، فترك أمام الشقيف من الجند من تكفل بتضييق الحصار عليه حتى سلم بعد سنة تقريباً

كان القصد من هذه الحركة التى قام بها الأفرنج أمام عكا استرداد البلاد التى فقدوها ، وكان أول من قام بهذه الحركة الملك جوى بمن تجمع حوله من العساكر ، بعد أن منعه كونارد من دخول صور ، وعدم السماح له بالوجود فيها بأى حال من الأحوال ، فاضطر جوى إلى المقام خارج أسوار صور بمن معه من الجنود الذين استطاع أن ينازل بهم طائفة من المسلمين وينتصر هنالك عليهم ، ويظهر أن هذا النصر قد شجع جوى على السير نحو عكا ، ولما علم كونارد بمن اجتمع حول جوى ، وما قام به هو وأتباعه من مناوشة المسلمين والانتصار عليهم ، والتقدم بعد ذلك إلى عكا ، أسرع فلحق به بخيله ورجله ، وبدأ الفريقان فى حصار المدينة يوم ١٣ رجب سنة ٥٨٥

واستمر الحصار نحواً من سنتين ، وسبب تمكن الأفرنج من إطالة الحصار هذه المدة هو تدفق سيل القادمين من أوروبا عقب نداء أهل الدين فيها بأنقاذ البلاد المقدسة من أيدى المسلمين والدعوة إلي حملة صليبية جديدة

أغفل السلطان صلاح الدين ما كان من شأن الذين تجمعوا حول الملك جوى ، ولو أنه قضى عليهم لما انضم كونارد إليهم ، ولما حوصرت عكا هذا الحصار الذى سبب سقوطها ، وشجع الأوروبيين على العمل لاسترجاع الأراضى المقدسة ، فتدفقوا كالسيل من كل ناحية

وجه السلطان عنايته كلها إلى حصار الشقيف ، وترك جوى يتقوى رويداً رويداً ، ولم يتدارك عكا إلا بعد أن كان هـذا الملك هو ومن اجتمع إليه قائمين على حصارها

تلك غلطة لا يصح السكوت عليها ، فأنا لا نستطيع أن نعلل كيف يترك السلطان صلاح الدين ، وهو الذى عرفنا عنه فيما سبق بعد النظر والتبصر فى الأمور ، الملك جوى تتضاعف قوته ، فوق ما يعلم من تجمع المسيحيين فى صور ، دون أن يقوم فيشتت شمله ويفرق جمعه . هذه غلطة كبرى لا بد من ذكرها والتنبيه عليها وإضافتها إلى غلطاته السالفة من ترك الجنود تتجمع في صور ، وفكه أسر كبار القوم بمجرد يمين يقسمون بهـا على أنهم لا يشهرون في وجهه سلاحاً ، لا سيما وقد علم أكثر من مرة مقـدار محـافظة الأفرنج على أيمانهم ومواثيقهم مع المسلمين ، ولا أجد أمامى مبرراً لهذه الغلطات إلا واحدة من اثنتين ، فأما أن يكون كريماً متساهلا إلى هذا الحد الضار ، ويكون هذا التساهل نفسه غلطاً

فاحشاً ، إذ الواجب على من بيده مقاليد أمم لا أمة واحدة أن يكون حازماً بصيراً شديد الحرص ؛ وإما أن يكون قد أخذ منه الورع والتمسك بآداب الدين حداً جعله يثق وثوقاً تاماً بمن يبرم معه أمراً أو يقطع معه عهدا ؛ على أننا لا نلتمس له عذرا فى فعلته هذه ، ولا نحاول تبرئته من الخطأ الذى عرض به البلاد لخطر كانت بعيدة عنه بعداً كبيراً

استصغر السلطان أمر جوى ومن اجتمع إليه من الجنود ، فكانت نتيجة ذلك أن تمكن الأفرنج من الاستيلاء على عكا وغيرها من بلاد الساحل ؛ وإليك بيان الحال

وصل جوى ومن معه إلى عكا ، فضرب الحصار عليها من جهتين ليمنع وصول المدد إليها من البر ، وسمع السلطان بمسيره فأراد أن يقف فى طريق المدد إليه ، ولكن أمراءه أشاروا عليه بأن يسارع إلى ميدان عكا نفسه ويهاجم الذين حاصروها ، ففعل ؛ بيد أنه ما كاد يصل إلى ميدان عكا حتى وجد الأفرنج على حصارها ، وهنا تريث قليلا حتى تبدو من الأفرنج حركة عدائية نحوه ، وتريثوا هم أيضاً ، والأمداد تصل إلى الفريقين ، حتى ضاق بهم سهل عكا ، ثم بدا للسلطان أن يبادرهم بالهجوم ، فانقض عليهم بمن معه دفعة واحدة ، فأزاحهم عن أماكنهم ، وفتح الطريق إلى المدينة فدخلها قسم من الجيش ؛ ويقول هنا استانلى إن السلطان نفسه قد دخل المدينة وكان هذا فى عصر يوم ٢ شعبان سنة ٥٨٥ (١٥ سبتمبر سنة ١١٨٩)

أقبل الليل فعاد المسلمون إلى معسكرهم طلباً للراحة ، وهنا يقول ابن الأثير « ولو أن المسلمين لزموا قتالهم إلى الليل ، لبلغوا ما أرادوه ،

فأن للصدمة الأولى روعة ، لكنهم لما نالوا منهم هذا القدر ، أخلدوا إلى الراحة وتركوا القتال ، وقالوا نباكرهم غداً ونقطع دابرهم » فلما أصبحوا وأرادوا نزال الأفرنج ، امتنع هؤلاء حتى يحصنوا مراكزهم ويحفروا ما شاءوا من الخنادق ، استعداداً لما يريدون القيام به من الأخذ بالثار ، وقطع ذلك الطريق الذى استولى عليه جند السلطان ، ولم تكد تبزغ شمس يوم ٥ رمضان سنة ٥٨٥ (٤ اكتوبر سنة ١١٨٩) حتى حمل الأفرنج على المسلمين حملة صادقة أزاحتهم عن مكانهم ، وشتت شملهم ، وردتهم على أعقابهم ؛ وكانت هذه الهزيمة هى ودخول الشتاء ، وحلول شهر رمضان ، وإلحاح الأمراء عليه بالرحيل ، مما اضطر السلطان إلى السير برجاله إلى الخروبة تاركا الأفرنج وعكا إلى يد القدرة تصرفهما كما تشاء ، فكان في رحيله قوة للأفرنج ، إذ أخذوا يحصنون مواقعهم على مهل وهم آمنون مطمئنون

أحزن السلطان ما رآه من نشاط الأفرنج وتراخى المسلمين ، وعلم مقدار الخطر المحدق به ، فراسل الجهات يطلب الأمداد ، ومكث طول الشتاء حيث أقام حتى عوفى من مرض ألم به ، والتفت حوله الأجناد ، فقام بهم إلى حيث كان يقيم أولا في تل كيزان لمنازلة الأفرنج ، وكان وصوله إليه يوم ١٧ ربيع أول سنة ٥٨٦ (٢٥ إبريل سنة ١١٩٠)

أما الأفرنج فقد أعدوا أثناء الشتاء من آلات التدمير ما وصلت إليه قدرتهم ، وأقاموا ثلاثة أبراج ليقذفوا منها على المدينة قذائفهم الجهنمية ، فأخذ السلطان بعد أسبوع من مقدمه في مناوشتهم حتى يوجههم إلى قتاله فيضطرهم إلى ترك المدينة ، غير أنهم كانوا إذ ذاك من القوة بحيث

استطاعوا أن يقاوموا نزلات السلطان ، وأن يستمروا على ضربهم المدينة

قام الجزء الذى خصص نفسه لقتال السلطان بهجوم عنيف ، وحمل حملة زحزحت جزءاً من جيش المسلمين عن مركزه ، واضطرته إلى الهرب ، فوصل بعضه إلى طبرية ، والبعض الآخر إلى دمشق ؛ ووصلت جنود الأفرنج مخيم السلطان ، فبعدت عن مراكزها ، وهنا تمكنت بقية القوة الأسلامية من مهاجمتها فألحقت بها ضرراً بليغاً لا يقل عما لحق بالمسلمين

أما الأبراج فظلت تقذف النار على المدينة دون أن يتمكن الأهالى من إحراقها ، فيئسوا وأيقنوا الهلاك ، وبينما هم على هذا اليأس إذ ظهر شاب دمشقي كان في المدينة قبل حصارها ، وزعم أنه خبير بأحراق هذه الأبراج ، فلم يعبأوا به ، لكنه قام من نفسه وألقى المقذوفات على أبراج الأفرنج فأحرقها بمن فيها ، وكان ذلك يوم ٢٧ ربيع أول سنة ٥٨٦ (٥ مايو سنة ١١٩٠) فسقط الأفرنج فى أيديهم وفرح المسلمون فرحاً شديداً

وصادف أن وصل أصطول مصري ، فقامت معركة بحرية بينه وبين مراكب الأفرنج ، تمكن الأسطول المصري عقبها من الدخول إلى ميناء عكا سالماً يوم ٨ جمادى الأولى سنة ٥٨٦ (١٤ يونيه سنة ١١٩٠)

وصل إلى علم السلطان فى هذا الأوان مقدم أمبراطور الألمان فردريك الأول الملقب باربروس بجيوشه عن طريق البر ، فأرسل إليه من يراقب حركاته فى جهات الشمال ؛ غير أن الله كفى المسلمين شره وشر جنده ، فغرق الأمبراطور فى نهر سالف يوم ٤ جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ (١٠ يونيه سنة ١١٩٠) ويقول بعض المؤرخين إنه غرق وهو يستحم ، وغير

هؤلاء يقول إنه سقط عن جواده وهو يعبر النهر المذكور ؛ وعلى أي حال فقد كان هذا وما وقع فيه الجيش من التعب والجوع ما قد فرط عقده وشتت جمعه ، فرجع أكثره وتمكن الباقي من الاتصال بأخوانهم أمام عكا ، وإن كان ابن الأثير ينكر هذا ويقول إن هذه البقية غرقت في البحر وهي عائدة إلى بلادها

علم السلطان بهذا ففرح فرحاً عظيما ، واغتبط المسلمون اغتباطا كبيراً ، وكانوا يومها قد كسروا الأفرنج الذين على عكا أبشع كسرة ، ثم أزمعوا قتالهم من الغد ، لكنهم انشغلوا بهذه البشرى فأهملوا القضاء على بقية الأفرنج الذين كانوا يومئذ على وهن شديد

ثم وصل بعد ذلك بيومين الكونت هنري وكان معه مال كثير ورجال عديدون ، فقوى بهم عزم من كانوا على عكا ، لا سيما بعد أن أخبرهم أن البحر يحمل إليهم مدداً عظيما ، وكان من واجب المسلمين إذ ذاك ملاقاتهم ومنازلتهم حتى يضعفوا أمرهم ويهدموا من قوتهم ما قد تجدد ؛ غير أنهم رأوا الانسحاب إلى الخروبة يوم ١٠ شعبان سنة ٥٨٦ (أول أغسطس سنة ١١٩٠) ليوسعوا نطاق الموقعة ، وليضطروا الافرنج إلى التحول عن خنادقهم ، فيقل ضغطهم على عكا ؛ ولكن هذا الانسحاب قوى عزيمة الافرنج على التضييق عليها ، وكانت الذخيرة قد قلت لدى الطرفين ، فأرسلت بيروت سفينة مشحونة بالميرة والذخيرة من كل نوع ، ووصلت عكا بعد أن رفعت صلباناً عليها ، ولبس بحاراتها لباس الأفرنج ، فلم يتعرضوا لها ، وكانت لا تنقطع المناوشات ولا تقف الأعمال الحربية طول هذه المدة لحظة واحدة ،

فقد أقام هنرى تلاً ليحمي وراءه ما يريد إقامته من الأبراج ، وصار يتقدم بالتل حتي قارب أسوار المدينة ، والأبراج وراءه ، ولولا هذا التل ما تمكن الأفرنج من إقامة أى برج ؛ وإقامة هذا التل كانت آخر حيلة وصلوا إليها ليأمنوا الخطر أثناء عملهم ، فكان حصنهم ودرعهم التى وقتهم سهام المحاصَرين

جاء الشتاء التالى فلم يجد أسطول الأفرنج بداً من الرحيل إلى صور أو غيرها ليأمن شر الزوابع ، فانفتح طريق البحر إلى عكا ، فأمر السلطان بتغيير الجند ؛ غير أن الذى خرج ليستريح لم يستبدل إلا بعدد قليل لا يكافيء نصف الذى خرج ؛ ووثق السلطان بنوابه فيها ، فأهمل مراقبتهم وتوانى عنهم ، فعرقلت حركة التجنيد ؛ وقد أشير عليه أن يرسل بالنفقات الكثيرة إلى من بعكا ويستبقيهم فيها لأنهم قد ألفوا نزال الأفرنج بها ، وعرفوا كيف يدافعون ، أما الذاهبون إليها فأنهم يقصدونها وهم كارهون ذلك ، فلم يقبل ظناً منه أن من بها قد مل نزال الأفرنج ، فكان هذا هو ووصول الأمداد إلى الأفرنج من أوروبا سبباً فى ضياع عكا بل وضياع جزء كبير مما استولى عليه المسلمون من قبل

وصل فيليب أغسطس ملك فرنسا فى عدد ليس بالقليل يوم ١٣ ربيع الأول سنة ٥٨٧ (١٩ إبريل سنة ١١٩١) فقوى أمل الأفرنج وشد من عزيمتهم ، وأخذوا يعملون لمضايقة المدينة ، ثم تبعه رتشارد قلب الأسد يقود أسطولا ، فلما وصل إلى مياه قبرص تخلف بجزء من الأسطول للاستيلاء على الجزيرة ، وفعلا تم له ذلك ، وسار الجزء الآخر يقصد عكا ، لكن أساطيل المسلمين في بيروت التقت معه فى البحر وأوقعت به ؛ ثم تحرك

رتشارد نحو عكا فوصلها يوم ٣ رجب سنة ٥٨٧ (٢٨ يوليه سنه ١١٩١) فصادف سفينة للمسلمين بها مدد كبير ، فقاتلها حتى كاد يستولى عليها ، فعمد ربانها إلى إغراقها فغرقها ، وبذلك غرقت هى ومافيها، فكانت خسارة كبيرة على عكا لاحتياجها إلى الرجال والقوت بسبب ما قدمنا من تغيير الجند وتلاعب نواب السلطان . ويقول الأمير على أن قد مرض فى هذا الأوان ملك الأنجليز وملك الفرنسيس ، فأرسل إليهما صلاح الدين ثلجاً وشراباً بارداً وفواكه وغيرها وظل على هذا مدة مرضهما

تمكن هذا الجمع الكبير من حصار المدينة برا وبحرا، فأقام من وسائل الهجوم ماقد أوقع أهلها فى شدة ما بعدها شدة ، فكتبوا إلى السلطان، فحزن حزناً شديدا لعدم استطاعته تخفيف شدتهم وإبعاد الأذى عنهم

راسل أمير عكا الأفرنج في الصلح ، وقال لهم « عندما استولينا على هذه المدينة سمحنا لجميع السكان بكل ما يشاءون ، فوهبنا لهم حرية الذهاب إلى حيث يريدون ، يحملون معهم أمتعتهم وأسلحتهم وبضاعتهم وأهليهم ؛ وها نحن اليوم نعطيكم المدينة على أن تعاملونا بمثل ماقد عاملنا به قومكم من قبل » فأبوا عليه ما طلب ، وراسلوا السلطان فلم يقبل ما قدموا من شروط ، بل عمد إلى حيلة ليتمكن بها من الاتصال بأهل المدينة فى جنح الليل، لكن أدركهم الصباح ، فانكشف الأمر وأخذ الأفرنج يوقعون النكال بالمدينة ، فخرج الوالى إليهم وصالحهم على مايريدون ، فراسلوا السلطان فى مال يؤديه ، وأسرى يفك أسرهم ، ورد الصليب المقدس . قبل السلطان ذلك كله نظير أن يخلى الأفرنج سبيل من فيها من المسلمين ؛ غير

أنه ما لبث أن علم أن القوم يريدون المكر به ، فامتنع ، فحملوا على المدينة ودخلوها يوم ١٧ جمادى الثانية سنة ٥٨٧ (١٢ يوليه سنة ١١٩١) بعد أن وهنت همة من بها من المدافعين ؛ وهناك عادت أعمال الوحشية إلى حالتها الأولى ، فشبع أهالى عكا ذبحا وقتلا ؛ ويقول استانلى « وقام ملك الأنجليز رتشاد يوم ٢٣ رجب سنة ٥٨٧ (١٦ أغسطس سنة ١١٩١) فقتل ٢٧٠٠ مسلماً أمام معسكر المسلمين والأفرنج ، من غير أن يتحرك قلبه من شدة بشاعة هذه المجزرة العظيمة » فسالت الدماء بحوراً ، وسبحت فيها الأرواح سبحاً ؛ وإن أردت أن تقف على بشاعة هذا المنظر فأقرأ ما يقوله استانلى عند الأستيلاء على عكا . ولم يبق الأفرنج إلا على من كان ذا مال يطمعون فيه « ولم تذهب عكا بلا ثمن — كما يقول الامير على — فقد كلفت المسلمين ٦٠ ألف نفس »

أما الأفرنج فأنهم عند ما استولوا عليها انغمسوا كعادتهم فى المسرات والملاذ ، فقال ميشود « ولقد تمتع الأفرنج المنتصرون واستراحوا راحة في عكا ما سبق لهم بها مثيل منذ جاءوا إلى سوريا ، فمسرات السلام وكثرة الطعام ، والنساء اللائى حضرن من الجزر المجاورة القريبة ، كل هذه أنستهم وقتاً ما مهمتهم التى جاءوا من أجلها »

قامت القوتان الأسلامية والأفرنجية تنازع كل منهما الأخرى امتلاك هذه المدينة ، وقامت أوروبا بأسرها والعالم اللاتينى كله فى آسيا يناوىء قوات السلطان صلاح الدين من ١٣ رجب سنة ٥٨٥ (٢٨ يوليه سنة ١١٨٩) إلى ١٧ رجب سنة ٥٨٧ (١٢ يوليه سنة ١١٩١) فكان من

المنتظر بعد هذا كله أن ينال الأفرنج بجموعهم هذه من السلطان شيئاً كثيراً ، فيتمكنوا من إيقاع الهزيمة بالمسلمين إلى الحد الأقصى ، ويستردوا كل ما فقدوا من البلاد ، لكنهم لم يستولوا بعد حرب دامت سنتين إلا على مدينة واحدة ، وبقى عدوهم فى قوته ومنعته لم يمس جيشه أذى كبير ؛ على أن الأيام قد علمت السلطان أكثر من هذا ، فأنه وثق أن جيشاً كبيراً كجيش الأفرنج يتركب من عناصر مختلفة اللغات واللهجات والعوائد والأغراض والمطامع ، لا يمكن أن يثبت على شكل واحد ، فلا يرتبط برابطة واحدة أمداً طويلا ، بل لا بد من وقوع التحاسد فيما بين القواد فيحل الشقاق محل الوفاق ، وتقوم المنازعات مكان الرابطة والوحدة

نعم عرف السلطان كل هذا مما سبق فجرى على مسرح مملكة اللاتين فى آسيا ، فجعل يتربص بهم السوء وينتظر الفرص الملائمة للعمل ؛ وماهى إلا أن هب رتشارد وفيليپ وقاما يتنازعان الرياسة ؛ فأعادا للعالم كله ذكرى تلك المشاغبات التى أودت بمملكتهم وذهبت بسلطانهم ؛ ولم يكن النزاع قاصراً بين هذين الرجلين فحسب ، بل قام جوى وكونارد ينازع كل منهما صاحبه تاجَ مملكة القدس الضائع ، وانحاز كونارد إلى فيليپ ، وجوى إلى رتشارد ؛ ويصح أن يكون هذا الانحياز هو الذى أوجد النزاع ، وسبب الشقاق بين هذين الملكين ، ذلك الشقاق الذى أدى بفيليپ إلى مغادرة البلاد المقدسة ، منتحلا لرحيله من الأعذار ما شاء ، فغادر البلاد يوم ٧ رجب سنة ٥٨٧ (٣١ يوليه سنة ١١٩١)

رحل فيليپ وخلف جزءاً كبيراً من جيشه لا تحت قيادة رتشارد

بل بقيادة كونارد الذي أراد أن ينال أكثر مما قد نال ، حتى قيل عنه إنه راسل السلطان صلاح الدين سراً وأراد الاتفاق معه على انفراد

كان من واجب رتشارد ، لو أنه من السياسة بمكان ، أن يزيل هذا الخلاف ، ويوحد كلمة القوم ليضرب العدو المتربص به ضربة تقضي على آماله وأعماله ، لكنه لم يفكر إلا في أن يقود جيشاً جراراً ينازل به عدوه العنيد ؛ وكان يرى أن أجلّ خدمة يؤديها للصليب هي استرداد بيت المقدس فحسب ؛ على أنه رغم هذا الاعتقاد ، لم يصر على عزمه ، بل كان يخضع لرأي من معه ممن حببوا إليه ألا ينفذ عزمه على فتح القدس ، لبعد الشقة ؛ بيد أنه فوق هذا كله قد تباطأ في حركاته وأعماله حتى انتهى به الحال إلى أن عزم على الرحيل إلى أوروبا نهائياً ، فكانت عودته هذه آخر الضربات المهلكة التي قضت على كل أمل في استرداد القدس وغيرها

هذه هي نتيجة الحصار والدفاع عن المدينة التي اشرأبت نحوها أعناق المسلمين والأفرنج ، ودافعوا عنها دفاع المستميت مدة سنتين ، وتلك هي آثار انتصار من انتصر ، ولم يعد للأفرنج من دواعي الأقامة فيها ، بعد أن رتبوا شؤنها ، سوى اختيار الجهة التي يغيرون عليها ، فقر قرارهم في النهاية على المسير إلى عسقلان ، ليعدوا منها حملة على بيت المقدس

قام القوم من عكا يوم ٢١ رجب سنة ٥٨٧ (٢٢ أغسطس سنة ١١٩١) وساروا بحذاء الشاطىء لتحميهم سفنهم من نيران المسلمين ، غير أن حال الجند في مسيرهم هذا كان غاية في الشدة لما كان ينقصهم من الدواب ، فاضطر كثير منهم أن يحمل ما كانت تحمله الدواب ، هذا عدا ما كانوا

عليه من التعب والنصب ، حتى اضطروا أن يحطوا رحلهم من وقت إلى آخر للراحة من عناء ما هم فيه

وصلوا يافا فى يوم ١٨ شعبان (١٠ سبتمبر) بعد أن أوقع المسلمون بهم وقتلوا منهم عدداً ليس بالقليل ، وما كادوا يصلون إلى يافا حتى أجمعوا أمرهم على ألا يسيروا إلى غيرها ، بل يتخذونها مركزاً يعدون منه حملتهم على بيت المقدس

غير أن رتشارد صمم على استمرار المسير إلى عسقلان كما كانت الخطة من قبل ، فأمر السلطانُ صلاح الدين بأخلاء المدن الواقعة فى طريقهم وهى حيفا وقيسارية وأرصوف ويافا فأخليت ثم خربت حتى لا يجد فيها الأفرنج ملجأ يلجأون إليه ، ورغماً من هذا فقد وقعت الواقعة بين الطرفين بالقرب من أرصوف ، انهزم فيها المسلمون انهزاماً شنيعاً ، ولكن السلطان لم فلول جيشه وسار بهم يطارد الأفرنج الذين أبوا ، رغم هذا النصر ، أن يتعرضوا إلى حربه حتى وصلوا يافا ، فتوجه السلطان إلى الرملة ليحفظ طريق القدس ، ولم يتحرك الأفرنج من يافا إلا بعد شهرين كاملين ، تمتعوا فيهما بكل أنواع الملاذ والملاهى ، وقد انغمسوا في الشراب وحضرت النساء اللائى كن قد منعن المسير مع الجيش من عكا وكن سبب كل هرج ومرج وقع فيه حتى تألم رتشارد من سوء الحال المعنوية التى وصلت إليها جنوده

أخذ رتشارد فى تحصين يافا وبناء المعاقل فى الصحراء ، ولكن المسلمين لم يتركوه لحظة واحدة من غير أن يعرقلوا عمله بما كانوا يقومون به من الغارات عليه ، ولقد كادوا يأسرونه في إحدى هذه الغارات لولا

واحد من أتباعه يسمى غليوم الذى قال باللغة العربية إنه هو نفسه الملك دون سواه ، وبذلك وقع فى الأسر ، ولولا هذا لما كان رتشارد إلا أسير صلاح الدين

ويقال إن الذي أقعد رتشارد عن الرحيل إلى القدس هو سير مفاوضات الصلح بينه وبين المسلمين حوالى آخر شهر رمضان سنة ٥٨٧ (نصف أكتوبر سنة ١١٩١) وما كان لملك الأنجليز أن يرغب فى الصلح إلا لأنه رأى صعوبة التقدم إلى بيت المقدس ، ولأنه رغب فى العودة إلى بلاده ، ولأن ما عاناه من الصعوبات فى مسيره من عكا إلى يافا ، وانقسام الأفرنج الذين معه ، وطول الوقت الذى قضاه قومه على عكا ، كل هذه دعته إلى طلب الصلح ورغبته فيه ، فدارت المخابرات بينه وبين الملك العادل ، وكان من شروطها أن يتزوج الملك العادل بأخت الملك رتشارد ، وهي أرملة ملك صقلية ، وأن يتنازل السلطان صلاح الدين لأخيه العادل عن البلاد التى احتلها بالشاطىء ، كما يتنازل ملك الأنجليز عن البلاد التى دخلها كصداق لاخته ، وأن تكون القدس ملكا للزوج والزوجة بصفتهما محايدين ، يفتحان أبوابها للمسلمين والأفرنج على السواء ، وأن يتبادل الفريقان الأسرى ، وأن تعاد خشبة الصليب المقدس إلى الأفرنج . عرضت هذه الشروط على السلطان صلاح الدين فوافق عليها رغبة منه فى حقن الدماء وإعادة السلام ، غير أن القساوسة ورجال دينهم غضبوا غضباً شديداً وقالوا كيف تتزوج أميرة مسيحية بأمير مسلم ، وما زالوا بها حتى رفضت هذا الزواج ، فرفضت المعاهدة

ويقول الأمير على فى هذا الصدد « لو سمح الكهنة ورجال الدين ورضوا بهذا الزواج ، لكان بلا نزاع القنطرة التى سار عليها السلام بين المسلمين والمسيحيين إلى اليوم » لكنهم هددوا رتشارد بالطرد من الكنيسة ، فأرسل إلى العادل برفض هذه الشروط

وسواء نجحت المفاوضات أم لم تنجح ، فقد أكسبت المسلمين وقتاً تمكنوا فيه من تأخير زحف الأفرنج على القدس ، وتخريب عسقلان

غير أنه فى هذا الأوان الذى كانت تدور فيه المخابرات بين رتشارد والعادل ، كانت رسل كونارد تتردد على السلطان لتعمل معه صلحاً منفرداً ، فجمع السلطان مجلس شوراه ، فكان رأيه أن يعمل الصلح مع رتشارد ، لأن التجارب علمتهم قيمة المعاهدات عند أمراء اللاتين فى سوريا ، واستمرت رسل كونارد رغم هذا تتردد على السلطان فى بيت المقدس طول الشتاء

قام السلطان من يوم رحيله إلى الرمله يخرب عسقلان وهو آسف على هذا أشد الأسف ، ولم يفضل تخريبها إلا لأنها كانت ثغراً صالحاً بالقرب من الحدود المصرية من جهة ، ولأنها على اتصال بري وبحري تقوم على الطريق الموصلة إلى القدس من جهة أخرى ، ففيها المدد لمن أراد القدس ، وقد امتنع أمراء جيشه من دخولها والدفاع عنها خشية أن يحاصرهم الأفرنج بها كما حاصروهم فى عكا وضايقوهم فيها ، فلم يجد السلطان بداً من تخريبها ، فأمر أهلها بالرحيل ، واستمر فى ذلك من يوم ٢١ إلى يوم ٢٩ شعبان سنة ٥٨٧ (١٢ إلى ٢٠ سبتمبر سنة ١١٩١) ولما تم له هذا ، أمر بتخريب الرملة واللد وانسحب بجيوشه إلى عين النطرون فوصلها يوم ١٥

رمضان (٤ أكتوبر) واستمر يخرب كل ما يرى فيه قوة للأفرنج إذا استولوا عليه ، حتى جاء الشتاء ، فرحل إلى القدس ، وسمح لجنده بالذهاب إلى أوطانهم للراحة ، وأبقى معه نفراً قليلا منهم ، يصلح ببعضهم أسوار المدينة ويحفر الخنادق ، ويرقب بالبعض الآخر الحوادث ، معتمداً في ذلك على ما تؤديه الطبيعة له من الخدمات في صد الأفرنج كالمطر والوحل . على أن هذين لم يقفا في سبيل رتشارد ، فقد سار بجنده في أوائل ذي الحجة (ديسمبر) حتى وصل إلى الرملة بعد الجهد الجهيد ، فأقام فيها عدة أسابيع يستريح ويريح الجند من شر ما لاقوا ، ثم دب فيهم دبيب الحب إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، فوصلوا بعد التي واللتيا إلى مكان يعرف ببيت نوبة ، والمسلمون في هذا يأخذونهم من كل جهة متى أمكنتهم الفرصة ، فلم يجد الأفرنج بداً من الرجوع إلى حيث ابتدؤا ، فوصلوا إلى الرمله في أواخر ذي الحجة سنة ٥٨٧ (أوائل يناير سنة ١١٩٢) ومن هنا ذهب عدد كبير من الفرنسيين إلى يافا ، كما أن غيرهم رحل إلى عكا ، وانكسر قلب أولئك الذين كانوا يطمعون في استرداد البيت المقدس ، وفترت همهم وعلاهم الحزن وكستهم الكآبة ، وسار كل في سبيله لا يلوى على أحد

وبهذا لم يبق مع رتشارد إلا نفر قليل قد دب في قلبه اليأس ، وأكل جسمه التعب وأضناه النصب ، فأراد أن يعيد في نفوسهم روح الحياة والحماس ، فعمد إلى تعمير عسقلان لتكون حصناً لهم ودرعاً يتقون بها شر المسلمين ؛ انتهى مسيرهم في وسط الأوحال وتحت وابل من الامطار وفي وسط الرياح والزوابع إلى حيث أراد رتشارد ، فوصل عسقلان ، فوجدها

أطلالا بالية ورمالا متراكمة ، فلم يُقعده حالها عن العمل فى عمارتها ، فشرع فى ذلك عقب وصوله إليها مباشرة .

بيد أن ما ظهر من المشاكل من قيام حرب أهلية فى عكا بين الفرنسيين وغيرهم ، ووصول النزاع بين رتشارد وكونارد إلى حد النهاية ، لاسيما وقد أخذ كونارد هذا يحالف صلاح الدين على انفراد كما قدمنا ، ووصول أخبار من انجلترا إلى رتشارد تفيد قيام الثورات فيها ، وطمع أخيه في الملك ؛ كل هذه الظروف جعلت الملك رتشارد يجمع قومه ليختاروا لهم ملكا ، إذ أنه لا يستطيع البقاء فى الشرق وبلاده على هذا الحال ، فاتفق رأى الجميع على اختيار كونارد ، فأذعن رتشارد لما قرروا

وهنا يحسن بى أن أذكر مسألة مقتل كونارد ، ذلك القتل الذى حدث بعد اختياره ملكا ببضعة أيام . يقول ابن الأثير « وكان سبب قتله أن صلاح الدين راسل مقدم الأسماعيلية وهو سنان أن ارسل من يقتل ملك انجلترا ، وإن قتل المركيز فله عشرة آلاف دينار » ثم يقول « ونسب الأفرنج قتله إلى وضع من ملك الأنجليز لينفرد بملك الساحل الشامي ، ولعل هذا القول الأخير هو ما اعتقده الفرنسيون ويؤيده ما جاء فى كتاب استانلى ليبس فى حياة صلاح الدين كلها ما يجعلنى آخذ بعبارة ابن الأثير الأولى ، فلو كان من خلق السلطان الغدر ودس الدسائس للإيقاع بالناس واغتيال حياة منافسيه ، لما سمعنا بأطلاقه سراح أولئك الأفرنج الذين كانوا يقعون فى أسره من وقت إلى آخر ، وهم أشد الناس عداءً له ، ولكنا قد وجدنا فى أخباره وهو بمصر أيام توليه وزارتها أمثلة لذلك ، ولكنا كذلك علمنا عنه ،

ولو محاولة ، التذرع بهذا السلاح الممقوت في التخلص من صاحب الموصل وغيره من الذين كانوا عقبة في سبيله ، بل ما عرف عنه من لين القلب ورقة والرحمة والعفو ، يجعلني أنفي عبارة ابن الأثير الأولى ، ففي ظروف الأحوال عند الأفرنج وقت ذلك ما يثبت عبارة ابن الأثير الثانية ، ذلك لأننا قد علمنا أن قد قامت المنافسات والمنازعات بين ملك انجلترا وكونارد حتى عدها المؤرخون من بين العوائق التي كانت تعوقه عن الأسراع بغزو القدس ، كما كانت من ضمن الأسباب التي حببت إليه السفر إلى انجلترا قبل فتحه

كذلك يدلنا على صحة عبارة ابن الأثير الثانية ، ويعزز وجود هذا النزاع الذي قام بين الرجلين ، ما يقوله ابن الأثير بمناسبة تقاعد ملك انجلترا عن المسير إلى عسقلان والسلطان يخربها ، ولوم كونارد له على تقاعده هذا ، وإليك العبارة برمتها « ولما سمعوا — أي الأفرنج — بتخريبها (عسقلان) أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها ، وكان المركيز ، لما أخذ الأفرنج عكا ، قد أحس من ملك الانجليز الغدر به ، فهرب من عنده إلى مدينة صور ، وهي له وبيده ، وكان رجلَ الأفرنج رأياً وشجاعة ، وكل هذه الحروب هو أثارها ، فلما خربت عسقلان ، أرسل إلى ملك الأنجليز يقول له : مثلك لا ينبغي أن يكون ملكا ويتقدم على الجيوش ، تسمع أن صلاح الدين قد خرب عسقلان وتقيم مكانك يا جاهل ، لما بلغك أنه شرع في تخريبها ، كنت سرت إليه مجداً ، فرحلته وملكتها صفواً عفواً بغير قتال ولا حصار ، فأنه ما خربها إلا وهو عاجز عن حفظها ، وحق المسيح ، لو أنني معك ، كانت عسقلان اليوم في أيدينا لم يخرب منها غير برج واحد »

هذا وحده يحمل مثل قلب الأسد على التغير على كونارد

ومع هذا فهناك ما يجعلنى آخذ بعبارة ابن الأثير الثانية ، ذلك هو قيام كونارد بمخابرة صلاح الدين فى الصلح ، فلو كان صلاح الدين يريد اغتياله لرضي أي شروط يعرضها كونارد ، ثم يدس من ناحية أخرى من يغتاله

أضف إلى هذا وذاك تتويج هنرى بن اخت رتشارد ملكا على القدس بدل كونارد ، ودخوله بزوج كونارد ليلة مقتله ، وفى هذا وحده دليل على أن القتل إنما جاء من ناحية الأفرنج لا من ناحية صلاح الدين

وزيادة على ما تقدم فقد جاء فى كتاب الأمير على ما ترجمته « فى الوقت نفسه ـ أى فى الوقت الذى كانت تدور فيه المخابرات بين صلاح الدين ورتشارد على الصلح ـ وصلت رسل جديدة من المركيز ، وعلى ذلك تواطأ ملك الأنجليز مع رئيس الحشاشين (الأسماعيلية) فى مصيف ليتخلص بواسطته من حليفه الخارج عليه ، وفى أول مايو سنة ١١٩٢ نزل اثنان من الفوضويين على كونارد وقتلاه ـ طبقاً لما ذكره فون همر فى كتابه على هذه الطائفة ، فقد برهن أن مقتل المركيز كان باتفاق قلب الأسد »

لست أرغب من هذا في تنزيه صلاح الدين أو أحاول أن أخليه من عيب ، إنما أريد أن أظهر إظهارا لا شك فيه أنه كان بعيداً عن هذا الحادث الذى لا يدل فى جملته إلا على جشع وطمع ونقص ، وهى أوصاف لم يصفه بها أحد حتى الأفرنج أنفسهم ؛ ولست أدرى ما الذى حمل ابن الأثير عليها ؛ وغاية ما يمكن أن يكون أن الخاصة من الأفرنج فى ذلك الحين قد

نشروا هذه الحادثة ونسبوها إلى صلاح الدين حتى يبعدوا عن أنفسهم المظنة ، فلا تؤاخذهم بقية قومهم بما صنعوا ، فجرى لسان العامة بها ، ساعدهم على هذا ما بين السلطان وكونارد من العداء ، فلا بد أن يكون قاتله عدوه ، لا سيما وهو أقدر إنسان على ذلك ؛ ولهذا يصح أن نقول إن ابن الأثير تأثر بما كانت تقوله العامة ، فخيل إليه أن السلطان هو الذى دبر أمر القتل ، ولابن الأثير وغيره أن يذهب إلى ما ذهب إليه ، فالشيء إذا راج وعم تناوله بين الناس ، كان من المسلمات

انقضى الشتاء والسلطان يقيم ما تهدم من أسوار القدس ويحفر الخنادق حولها ويستقبل الجند من كل جهات مملكته ، كما كان يستقبل مندوبى كونارد ومندوبى رتشارد على السواء ، واستمر على حاله حتى استرعى نظره ثورة قامت فى بلاد الجزيرة ، فحول طائفة من جنده إليها ، فانتهزها رتشارد وظن أنه يستطيع مهاجمة السلطان فى بيت المقدس ، فجهز العساكر وانقض بها على حصن الداروم فى منتصف جمادى الأولى سنة ٥٨٨ (أواخر مايو سنة ١١٩٢) وفى هذه الموقعة « برهن الصليبيون — كما يقول استانلى — على أنهم لم يفقدوا شيئاً من وحشيتهم المعتادة فى معاملة المسلمين » ولكن رتشارد عاد يخشى الفشل فيما يريد « فقام رؤساء الجند كما يقول استيفن سن — وأخبروه بأن فى مقدورهم حصار القدس ، وأنهم قد صمموا على ذلك رافقهم أم لم يرافقهم ، فحار فى أمره قليلا لأنه كان يرغب فى العودة إلى بلاده ، كما أنه لا يستطيع الصبر على البعد عن القدس وإخوانه يحاصرونها »

فتقدم بجنده حتى وصلوا إلى بيت نوبة وفيها مكثوا شهراً ينتظرون مقدم ملك القدس الجديد، والمسلمون فى هذا الأوان يعملون على جمع قواهم، ويرتبون دفاعهم عن مدينتهم، والسلطان يركب بنفسه فى جماعات من جنده ليناوئ الأفرنج، فلما أصبحوا على مقربة من القدس، جمع قومه وسهر ليله خوفاً على المدينة، يعمل جهده للدفاع عنها، فأرسل الأمير جرديك على طالعة الجيش وأوصاه أن يرسل إليه بأخبار العدو أولا فأولا، فأرسل إليه يوم ٢١ جمادى الثانية سنة ٥٨٨ (٣ يوليه سنة ١١٩٢) بأن العدو قد خرج من خيامه وأخذ موقفه على التلال المجاورة ثم عاد فى آخر النهار إلى مقره؛ وأرسل إليه فى اليوم الثانى ينبئه بما وقع بين الأفرنج من الشقاق؛ فالفرنسيون يودون ألا يعودوا إلى بلادهم حتى يفتحوا القدس، وهى التى من أجلها تكبدوا كل ما تكبدوا من عناء وتعب، وغيرهم يرى استحالة فتحها، والأنجليز يقولون إن المكث حيث هم شاق صعب، فقد أفسد السلطان كلَ منابع المياه فتعذر عليهم الحصول عليها بكل وسيلة؛ وفى حالهم يقول ابن الساعاتى من قصيدة

سل عنه قلب الأنكتير فأن فى ... خفقانه ما شئت من أنبائه

لولاك أم البيت غير مدافع ... وأسال سيل نداه فى بطحائه

ويقول استيفن سن فى هذا المقام «لم تكن رغبة رتشارد الحقة إلا عدم مهاجمة القدس، ففشلت الحملة عليها، فادعى أن الحاجة إلى الماء ماسة، وهو قليل، وقلته عقبة كأداء فى سبيلهم» ثم يقول «ولا يزال سلوكه فى هذا الوقت وبعده برهاناً قاطعاً على أنه كان يريد الخلاص من ورطة

مهاجمة القدس وحصارها ، لأنه لم ير من الشرف والشهامة أن يترك الأفرنج تذهب إليها حين يوليهم ظهره ، ولذلك ظل يعمل حتى يثنى عزمهم عنها ؛ ولقد كان مستعداً للعمل معهم فى شئ آخر غير حصار القدس ، كالهجوم على دمشق أو بيروت أو غزو مصر ، وساعده على هذا جماعة من لاتين الشام كانوا يسعون وراء غاياتهم الشخصية »

انتهى حال الأفرنج فى ذلك اليوم بأن جمعوا مجلساً ليرى رأيه فى الأمر ، فأمر هذا المجلس بترك القدس التى ما كانت تبعد عنهم كثيراً والرحيل إلى القاهرة وغزوها ، وهى على مسافة بعيدة جداً منهم ؛ وفى هذا يقول استيفن سن « والعجب أن نعلم أن المجلس أقر غزو مصر وهو أمر غريب مدهش » وعلى هذا تراجع الأفرنج وخلص السلطان بذلك التراجع من كرب ما بعده كرب وطرب المسلمون غاية الطرب

توجه الأفرنج إلى عكا وجمع الملك رتشارد رجاله ، وأراد مغادرة الشام إلى بلاده ، بعد أن أرسل عند تفهقر جيشه الرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الصلح ، ذاكراً له أنه يرغب فى محبته وصداقته ، وأن ليس فى نيته امتلاك أرض بالشام ، وأنه يشعر كما يشعر السلطان بوجوب انتشار السلام ، وأنه يقدم ملك القدس هنرى إليه ليكون له عوناً ، بعد أن يتنازل السلطان له عن القدس والبلاد الساحلية وعسقلان ، فأبى عليه السلطان ما طلب ، وسار فى جيشه وراءه حتى وصل يافا فملكها ، فذهبت حاميتها إلى قلعتها ، وبينما هى على وشك التسليم للسلطان إذ قدم رتشارد فى البحر بجيشه وأسطوله وتمكن من إيقاع الهزيمة بالمسلمين فتقهقروا . جمع السلطان

العساكر من الجهات المختلفة، وخاف مرة أخرى على القدس، وتيقن أن الملك لا يرحل بعد انتصاره هذا إلى بلاده قبل أن يستولى عليها. تقاتل الطرفان مدة قصيرة أهدى فيها صلاح الدين إلى رتشارد جوادين من جياده لمّا رآه يقود جموعه راجلا؛ وفى هـذا دليـل آخر على أن صلاح الدين ما حاول أو فكر فى اغتيال حياة منافسيه أو أعدائه غدراً وخيانة

ما زالت الحرب بين المسلمين والأفرنج سجالا لا يقوى أحدهما على أن ينتصر انتصاراً نهائياً على خصمه، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب إلى الرملة يوم ٤ شعبان سنة ٥٨٨ (١٥ أغسطس سنة ١١٩٢) وأخـذوا يستعدون للهجوم على الأفرنج والاستيلاء على يافا مهما كلفهم الأمر

غير أن الظروف التى وقع فيها الأفرنج غيرت مجرى الأحوال، فقد غادر الفرنسيون رتشارد، وقد أصيب بحمى شديدة رغم تحرزه منها، ورأى اجتماع عسكر المسلمين فهاله أمرهم، وهو يود ألا يغادر ساحل البحر وللمسلمين به بلد يطمع فيه، وقد طالت غيبته عن بلاده. كل هذه الأحوال المتباينة اضطرته أن يراسل صلاح الدين فى الصلح، وأظهر اعتدالا فى الطلب، ورغبة شديدة فى حسم النزاع، وميلا كبيراً لحقن الدماء وتوطيد دعائم السلام، فلم يجبه صلاح الدين بشئ أكثر من الاستمرار فى أمر الجهاد؛ فأرسل رتشارد الى الملك العادل يتوسط بينه وبين أخيه السلطان، فأظهر العادل هو وجماعة من أمراء المسلمين للسلطان ما عليه الجند من الضجر والملل، وما هى عليه أسلحتهم ودوابهم من النقص، وما زالوا به حتى رضي؛ فوضعت شروط الصلح على أن تكون بلاد الشاطئ من صور إلى

عكا بيد الأفرنج ، وأن تخرب عسقلان ، وأن يسير المسلمون والأفرنج فى أملاك بعضهما بعضاً من غير أن يعتدى عليهم ، ولحجاج الأفرنج زيارة القبر المقدس ، ثم وقع الفريقان على هذه الشروط يوم ٢٢ شعبان سنة ٥٨٨ (٢ سبتمبر سنة ١١٩٢) وهى تقضى فوق ما تقدم أن يظل السلام بين المسلمين والأفرنج ثلاث سنوات وبضعة أشهر ، وقد وقع عليها رتشارد ويداه ترتجفان من شدة الحمى فلم يستطع قراءتها ، ثم غادر يافا إلى عكا يوم ٢٨ شعبان (٨ ستمبر) وفى مساء أول شوال (١٠ اكتوبر) أقلع إلى أوروبا ، وأطلق على هذا الصلح (صلح الرملة)

هكذا كانت نتيجة حرب مكثت خمس سنوات ذهبت فيها أرواح الكثيرين ، فأقفرت عدة أمكنة فى الشرق والغرب ، وأفقدت ألمانيا أمبراطوراً من أعظم أمبراطرتها (فريدريك باربروس) كما أضاعت فرنسا وانجلترا نخبةً من زهرة شبابهما وفرسانهما ، كل هذا دون أن ينال الأفرنج سوى عكا ، فلم تكافئ نتيجة هذه الحرب بأى شكل من الأشكال ما تكبدته أوروبا وفقدته فى سبيلها

قامت هذه الحرب منذ واقعة حطين ، وما كان للمسلمين إذ ذاك قيد شبر في فلسطين ، أما بعد واقعة يافا وصلح الرملة ، فقد أصبحت فلسطين كلها مسلمة ، خلا ذلك الجزء الضيق من صور إلى عكا ، وصار بذلك صلاح الدين من القوة والمنعة بحيث لا يهتز لأى قوة أخرى ، فخضع لسلطانه أمراء تلك الجهات كلها ، وطرد الأفرنج من البلاد ، واسترد بيت المقدس ، وأعاد للإسلام مجده وسمعته وكون وحدته مرة أخرى

سار صلاح الدين إلى بيت المقدس متفقداً أحواله ، ومنظماً أموره ، يفتح المدارس وينشئ المستشفيات ، ثم أعلن رغبته فى أداء فريضة الحج ، فخاف الأمراء غدر الأفرنج بهم إذا علموا ذلك ، فألحوا عليه بالعدول ، فأجابهم إلى ماطلبوا ، ورحل بعد قليل إلى جهات الساحل ليتفقد أحوال الحصون والمعاقل بها ، وليصلح مايحتاج منها إلى إصلاح ، فسار من القدس إلى نابلس فبيسان فالكوكب فطبرية ثم إلى بيروت وفيها تقابل مع صاحب أنطاكية فتهادن معه ، ثم سار إلى دمشق فوصلها يوم ٢٦ شوال (٤ نوفمبر) ففرح الناس بقدومه حتى أغلقت الحوانيت ، وهب الناس كلهم لاستقباله ، ولا عجب إذا هم فعلوا هـذا فأنما يحتفلون بمن حفظ لهم بلادهم ، ورد لهم ماكانوا قد فقدوه ، وليس هذا هو كل مافعل بل أعاد لهم الحرية ، ونشر بينهم لواء العدل ، وسكن الفتن ، وأزاح العلل التى كانوا يخوضون الدماء من أجلها

أخذ صلاح الدين ينظم الأمور ويوزع الصدقات على الفقراء والمساكين ويسرح الأجناد إلى بلادهم ، وهو فى خلال هذا فى أحسن صحة ، يخرج كل يوم للصيد ثم يعود ، ومازال على هذا الحال حتى خرج يوم ١٤ صفر سنة ٥٨٩ (٢٠ فبراير سنة ١١٩٣) لملاقاة الحجاج العائدين من مكة ؛ وكان محفلا رهيبا تأثر منه السلطان وبكى لعدم تأديته الفريضة ، ولم يكد يقضى ليلته حتى أخذته حمى لم تمهله إلا أياما معدودات فارق بعدها الحياة ، فمات يوم الأربعاء ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣) وكان عمره إذ ذاك ٥٧ سنة ، قضاها فيما ذكرنا ، فبكته الناس قاطبة ، ولم يخرج أحد يوم مماته من بيته ، فكنت ترى الأسواق خالية خاوية على عروشها ، والطرق تنادى

المارة فلا تجدهم، ولم تبق عين إلا زرفت الدموع عليه، ودفن حيث مات بعد أن كفن بأبسط أنواع الكفن، وبعد نحو من ثلاث سنوات أعد له ولده الأفضل قبرا بجوار الجامع الأموي مكان دار رجل صالح اشتراها منه، ونقل رفاته إليه في يوم عاشوراء بمحفل رهيب، وجلس للعزاء بالجامع ثلاثة أيام كاملة

أما ثاني يوم وفاته فقد غص المكان بالناس وهم يبكون وينتحبون، وحرم على الكتاب والشعراء والخطباء الرثاء، غير أن العماد رثاه بقصائد طويلة منها قصيدته التي يقول فيها

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء واقلعت حسناته

أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته

بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته

أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلا ومنها أدركت ثاراته

في نصرة الأسلام يسهر دائماً ... لتطول في روض الجنان سناته

ملك عن الأسلام كان محامياً ... أبداً إذا ما أسلمته حماته

من لليتامى والأرامل راحم ... متعطف مفضوضة صدقاته

من للثغور وقد عداها حفظه ... من للجهاد ولم تعد عاداته

ياوحشة الأسلام يوم تمكنت ... في كل قلب مؤمن روعاته

وقف الملوك على انتظار ركوبه ... لهم ففيم تأخرت ركباته

كانوا وقوفاً أمس تحت ركابه ... واليوم هم حول السرير مشاته

هذي مناشير الممالك تقتضي ... توقيعه فيها فأين دواته

قد كان وعدك في الربيع بجمعها ... هذا الربيع وقد دنا ميقاته

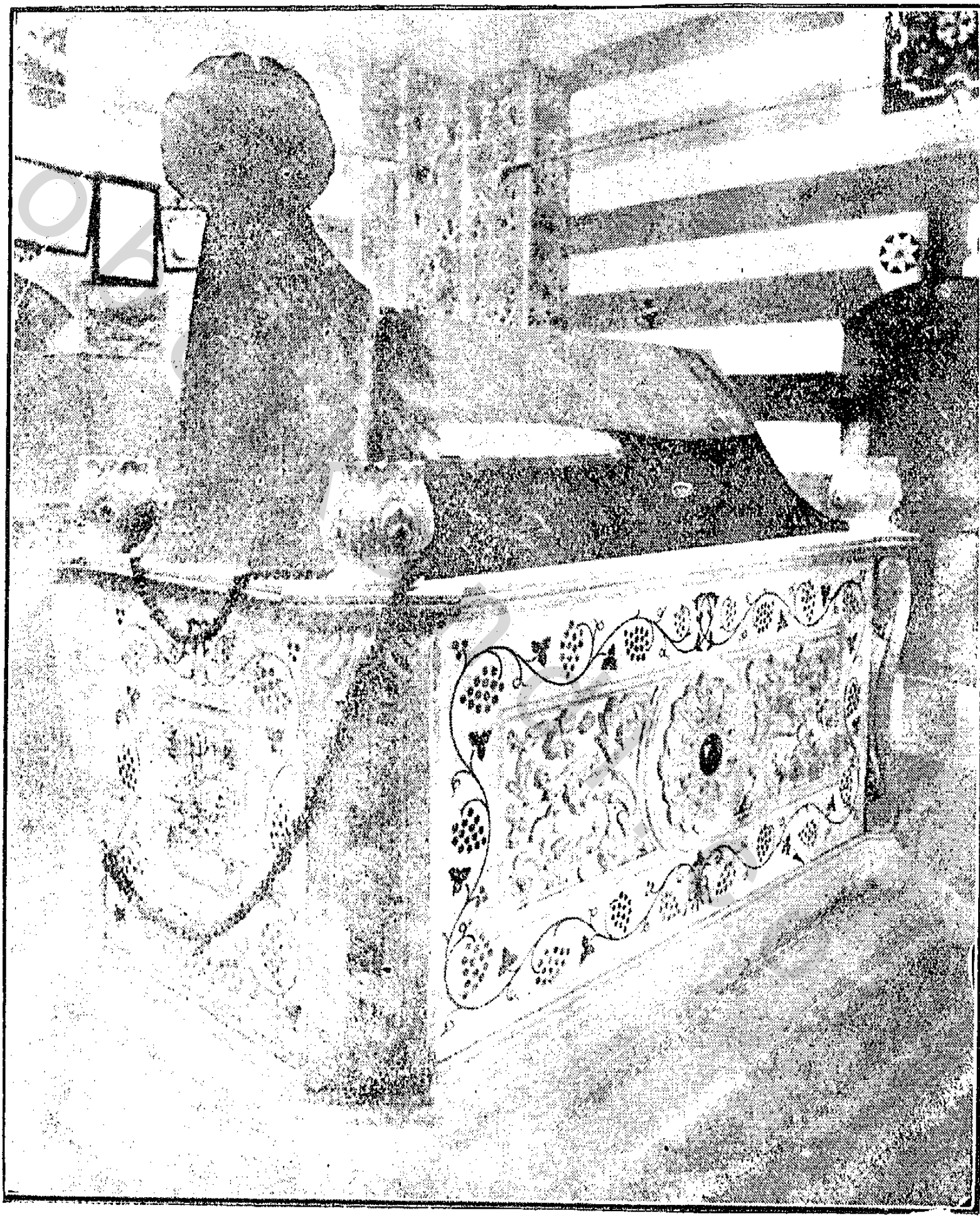

قبر صلاح الدين

وفيه يقول نثراً « ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال ، وغاضت الأيادى ، وفاضت الأعادى ، وانقطعت الارزاق ، وادلهمت الآفاق ، وخاب الراجون ، وغاب اللاجون ، وخاف الآمن ، وخاب الامل ، وقنط السائل . . . . »

وقال فيه صاحب كتاب طبقات الشافعية « ملك البلاد ، ودانت له العباد ، وأحبه الخلق ، ونصر الأسلام ، وهزم الأفرنج وكسرهم مرات ، وفتح المدن الكبرى ، وأقام فى السلطنة أربعاً وعشرين سنة ، يجاهد فى الله بنفسه وماله ، وكان ملكا عظيما شجاعاً مهيباً عادلا ، يملأ العيون روعه ، والقلوب محبته ، قريباً بعيداً ، عابداً قانتاً لله ، لا تأخذه لومة لائم ، مجلسه يجمع الفضلاء والفقراء ، وأصحابه كأنهم على قلب رجل واحد محبة فيه واعتقاداً وطواعية »

مات السلطان وبموته فقدت الأمة الأسلامية سلطاناً قوياً أعزها وأقالها من عثرة كادت تؤدى بها إلى الهلاك والدمار ؛ توفي صلاح الدين وقد نثر فضله أعداؤه ؛ وجدوا فيه أستاذاً كبيراً ، وعاملا عظيما ، فأخذوا عنه دروساً فى الشجاعة والفروسية ، ونماذج فى الكرم ، ومثالا لمكارم الاخلاق ، وينبوعاً للرحمة والشفقة ، فاعترفوا من فضائله شيئاً غير قليل